

عباس الزبيدي

النبي يونس (يُونَان) والحيوت

قراءة جديدة للنص والجغرافيا التاريخية للحدث

مؤسسة البديل للدراسات والنشر
التجف الأشرف

الطبعة الأولى

النبي يونس (يونان) والحوت
قراءة جديدة
للنص والجغرافيا التاريخية للحدث

بيت الحج حالي

النبي يونس (يونان) والحوت

قراءة جديدة للنص والجغرافيا التاريخية للحدث

عباس الزبيدي

اسم المؤلف: عباس الزبيدي

عنوان الكتاب: النبي يونس (يونان) والحوث قراءة جديدة للنص والجغرافيا
التاريخية للحدث

الطبعة: الأولى.

سنة الطبع: ٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

الناشر: مؤسسة البديل للدراسات والنشر

مؤسسة البديل للدراسات والنشر

النجف الأشرف - العراق

الهاتف : ٠٠٩٦٤٧٨٠٥٥٦٦٩٠٩

البريد الالكتروني : aram_1430@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته، أو نقله، على أي نحو،
إلا بموافقة خطية من المؤلف مقدماً.

مقدمة

هذا البحث نموذج من دراسة موسعة أعتمزم بعد التوكل على الله تعالى، محاولة القيام بها، ومثل هذه الدراسات تحتاج إلى وقت طويل يمتد إلى سنوات عديدة، فهي تحتاج إلى إطلاع واسع على الحضارات والتاريخ القديم في الشرق الأدنى، وعلى الأقل المرتبط بموضع الحدث، كما تحتاج إلى التعرف على تاريخ وفقه اللغات القديمة من مصادرها التخصصية المعتمدة، ناهيك عن الجغرافيا والأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعقائد والقوانين والشرائع القديمة، وغير ذلك مما سيتضح للقارئ سواء في هذا النموذج أو غيره، وقد اخترت هذا الحدث دون غيره ليكون مقدمة ذهنية لاستقبال باقي الدراسة، حيث سيواجه القارئ زخماً من النتائج الصادمة نوعاً ما، وذلك نتيجة التراكم الخاطئ رسمياً وشعياً للتاريخ والجغرافيا التاريخية، ويجب أن لا يخفى على القارئ الكريم أن هذا البحث ليس موسعاً بالمقدار المتوقع، فهو ما سنتركه لقادم الأيام، لارتباطه بجغرافيا الحدث التوراتي والذي يحتاج إلى المزيد من الوثائق والمعلومات التصحيحية. وقبل الشروع في صلب البحث نحتاج إلى ثلاث مقدمات تمهيدية مختصرة :

المقدمة الأولى :

دراسات الجغرافيا التاريخية للحدث التوراتي : منذ القرن التاسع عشر أخذت هذه الدراسات موضعها في المحافل العلمية، خاصة بعد الاكتشافات الآثارية في وادي النيل والعراق، ومنذ البداية كان هدف المنقبين هو العثور على أدلة على صحة ما جاء في التوراة، ومن أقدم الباحثين في هذا المجال فردريك دليتش Friedrich Delitzsch عالم اللغات القديمة الالمانى ١٨٥٠ - ١٩٢٢م، ومن إسهاماته (أين كانت الجنة) و(بابل والكتاب المقدس)، ولم يخض علماء العرب في هذا المجال إلا متأخراً ومن أهمهم د. كمال الصليبي المتوفي سنة ٢٠١١، في كتابه (التوراة جاءت من جزيرة العرب) سنة ١٩٨٥ و(خفايا التوراة) و(حروب داود) و(البحث عن يسوع) وتبعه جملة من الكتاب والمفكرين منهم رياض الريس وزياد منى وفاضل الربيعي وأحمد يوسف داود، وقد تركزت جغرافيا الصليبي في منطقة جنوب الحجاز ومنطقة عسير، ولكن أطروحته واجهت مشاكل حقيقية منها أنه لم يعر النصوص المسمارية والجغرافيا التاريخية فيها أي اهتمام في كتابه، وركز على التشابه بين أسماء المدن والمواقع في التوراة والجزيرة العربية، وقد رد عليه فراس السواح من سوريا في كتابه (الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم)، وكان إهمال الصليبي للنصوص المسمارية أهم إشكالات السواح وأصحها، ولكن السواح من ناحيته

ارتكب مغالطات أخرى... ثم جاءت أطروحة سيد محمود القمني من مصر (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة) وقد حاول القمني تلافي مشكلة الصليبي بأن اعتمد على جملة من الحقائق الآثارية والنصوص المسمارية، ولكنه لم يبتعد كثيراً عن الجغرافيا المتعارفة للحدث التوراتي، ولم يعطنا أجوبة وأدلة على المشكلات الجغرافية والتاريخية التي لا تحصى، منها أن مصر التوراتية لم يثبت حتى الآن على أنها البلاد الحالية، فإن اسم (مصر) لم يكن يطلق على وادي النيل أو أي موضع قريب منه ذلك الوقت، ونعرف أنها كانت تسمى (كمت) أي الأرض السوداء و(بيت كوفتاح) أي معبد الإله فتاح. ولم يدلنا القمني على حقيقة الفرعون الغارق، مع أن حكام مصر لم تطلق عليهم هذه الصفة (پرعو)، كما أن الخروج الكبير الذي قام به بنو إسرائيل لم يصح منه شيء في تاريخ وادي النيل، ناهيك عن الاجتياح الاسرائيلي لفلسطين الذي لم نعثر على دليل عليه، كما أن (المملكة المتحدة) أكبر عقدة لم تحل حتى هذه الساعة، وكل ما قيل بشأنها لا يتعدى كونه آراء جزافية، ولم يسعفنا القمني كما باقي المهتمين، بوجود أثر أو نص يدل على الحدث التوراتي (جملة أو تفصيلاً) كما في هيكل سليمان المفقود، الذي لم يُعثر على نص أو حجر أو نحت واحد يشير إليه في فلسطين.

وبقيت المشكلة على حالها، وقد زاد من تعقيدها إسهام د. إسرائيل فنكلشتين Israel Finkelstein (أستاذ علم الآثار في جامعة تل

أبيب) ونيل آشر سيلبرمان Neil Asher Silberman (مؤرخ وباحث أمريكي) في دراستهما القيمة THE BIBLE UNEARTHED (التوراة مكشوفة على حقيقتها) حيث قاما بعملية مسح لمعظم المواقع المنقبة في فلسطين ومصر ولبنان والأردن، ونعلم أن فلسطين لم يُترك منها شبر واحد لم يبحث فيه اليهود عن دليل لأحداثها ولكن دون جدوى، وهذا ما أكّده الباحثان.

الخلاصة أن علماء الآثار والتاريخ القديم لم يعثروا حتى الساعة على مواضع الحدث التوراتي بما ينطبق فعلياً والنص التوراتي، فلم يثبت الى الساعة وجود هجرة من جنوب العراق إلى جنوب فلسطين، وهو ما يتعارض مع الرحلة المذكورة لإبراهيم من أور الكلدانيين إلى حران ثم إلى النقب جنوب فلسطين فمصر وعودته إلى فلسطين، كما أن الاجتياح الذي قام به بنو إسرائيل لفلسطين بعد خروجهم من مصر لم يثبت لا من جهة مصر ولا من جهة فلسطين، ونفس الأمر يقال عن حروب يشوع بعد وفاة موسى وعصر القضاة ومن ثم المملكة المتحدة فالمنقسمة، وما تذكره التوراة عن المملكة العظيمة لداود وسليمان لم يعثر على دليل واحد عليه في فلسطين برمتها. وعلى هذا المنوال باقي تفاصيل التوراة حتى زمن السبي الأخير في عهد نبوخذ نصر الثاني وزوال المملكة نهائياً. وفي سنة ٢٠٠٦ صدر كتاب هام بعنوان (شنعار أرض اللاهوت ومدفن الأسرار) لنوري المرادي، وهو مختلف تماماً عن كل ما سبقه وأهمها وأكثر واقعية، مع أن الباحث اعتمد في

أطروحته على رأي جاء في كتاب (موسوعة العتبات المقدسة) والذي نقل بدوره عن كتاب (أسطورة الشعب المختار) لمؤلفه جان لوي برنار، الذي ذهب فيه إلى أن الملك سليمان من ملوك آشور، وعلى مصادر المندائيين وكتبهم المقدسة، ومع أنه لم يستطع أن يوثق نتائجه بشكل تام وتوجد نقائص كبيرة فيها، كما أن اعتماده على الرأي أعلاه بكون النبيين الملكين داود وسليمان هما أدد نيراري الأول وابنه شلمنصر الأول يواجه مشاكل كثيرة دون ريب، إلا أنه اقترب بشكل ملحوظ من الجغرافيا الفعلية للحدث التوراتي، وأنها ضمن الجغرافيا التاريخية للشرق الأدنى القديم، وأن العراق يمثل الموضع الأساسي لمجملها، كما أشار قبل ذلك سهيل زكار في كتابه (المحذوف من التوراة كاملاً) إلى أهمية شمال العراق وتموضع الحدث فيه، معتمداً على النصوص غير القانونية (أبو كريف)، ولكنه على غرار كل من سبقه أو جاء من بعده بقيت هناك حلقات مفقودة ولا يمكن الركون لأي من هذه الأطروحات بسببها، ولكن كانت لها فائدة عظيمة بأن فتحت الأبواب للبحث بجرأة وأصبحت منطلقاً لكل ما هو قادم، ومن المؤكد أنها أصابت معظم الحقيقة من الناحية السلبية (النقد) للجغرافيا والتاريخ المتعارفين والمشهورين.

ومن المؤكد أن كل أحداث التوراة لها جذورها التاريخية ولكنها تقع في زمن وجغرافيا آخرين سندلي بدلونا فيها في حينه بإذن الله تعالى. وهذا ينطبق بدوره على الجغرافيا المقترحة في سفر يونان، وهي

جغرافيا متخمة بالأخطاء بشهادة التوراة نفسها كما سيأتي، لذلك علينا أن نبحث عن الحدث في موضع آخر.

المقدمة الثانية :

التاريخ والأسطورة : أجمع علماء التاريخ القديم على أن الأساطير تشمل على أحداث تاريخية معينة، ولكن بعد تجريدها من مادتها الأسطورية أو الغيبية أو الروحية، فقد انعكست (بشكل دائم) عقائد عصور الكتابة على النص مما زاد في غموضه، وذلك بإدخال عنصر الغيب وكثرة الآلهة ودورهم المباشر في الحدث، فأصبح النص بين رؤيتين :

الأولى : تسخيف محتوى الأسطورة ونبذها وعدم الاعتماد عليها لمعرفة الأحداث التي حصلت في زمن أبطالها.

الثانية : هي محاولة استخلاص الحدث بتجريده من المادة الأسطورية، ومحاولة العثور على المادة التاريخية وجغرافيتها وشخصها وزمن حدوثها. وهذا ما أصبح من مسلمات العمل الحديث على أساطير العراق القديم وغيرها. إلا أن هذه الرؤية خضعت لأحكام مسبقة، وجغرافيا تمّ تشخيصها بتراكم الزمن دون نتيجة تذكر بتطبيق المادة التاريخية على المواضع، ولازال الجميع يدور في دائرة مفرغة. ويجب أن نلاحظ في الأسطورة أنها قد تخلط علينا زمن الحدث

وأبطاله، كما هو الحال في ملحمة كلكامش، وقد نوه الأستاذ طه باقر لذلك في المقدمة، حيث أشار الى أن البطل الرئيسي للملحمة (كلكامش) خاض تجارب وأحداث متعددة متباعدة زمنياً.^(١) ومع التمعن في الملحمة سنجد أن الأحداث الواردة فيها متفرقة، ولكل حدث - تقريباً - أبطاله، إلا أن الملحمة برمتها نُسبت إلى بطل واحد هو كلكامش، وهذا ما فعله الكاتب الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد الذي جمع لنا النص الحالي من الملحمة.

ونجد أن التوراة مليئة بالأحداث التاريخية التي تمت أسطرتها وتضخيمها من قبل الكتبة، لأنها حفظت شفويًا، وبعد زمن ليس بالقصير على زمن الحدث دُوِّت مع إضافات أسطورية وتمَّ نقلها إلى زمن ومكان آخرين، ومن أوضح هذه الأحداث قصة شمشون وهو أحد أبطال زمن القضاة، وهو زمن مبهم، وقد أُعطي شمشون قوة جبارة استطاع في أحد معاركه الشخصية أن يقتل ألف شخص بفك حمار، وأخيراً قضى منتحراً مدمراً (هيكل داجون) عليه وعلى أعدائه، حتى قال فيه شراح التوراة: (إننا أمام أساطير، ورأى شراح آخرون أخباراً شعبية تنطلق من نواة تاريخية. كل هذا كيّفه الكاتب الملهم وجملّه وضخمه...)^(٢) ولكن حتى الشراح الذين يرون أن للحدث جذوره

(١) طه باقر، ملحمة كلكامش ٦٣ - ٦٤.

(٢) الفغالي، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم ٧٢٤.

التاريخية لم يسعفونا ويحددوا لنا (ولو بالاحتمال) شخصية شمشون وعصره، وتفسير محتوى الأسطورة وتطبيقه على العصر الذي يحتمل وقوعه فيه.

ونفس الكلام يرد هنا حول تفسير القرآن، حيث تأثر المفسرون بالحكايات الشعبية والتفسير الشعبي، حتى أننا نجد أنفسنا أمام تفاسير كارثية في الغالب، وليس الأمر مقتصرًا على فهم الرمزية في القرآن، حيث نجد أنفسنا أمام مستوى عال من الرمزية، كما في قصة إبليس والملائكة والحوارات التي حكى عنها القرآن بين الله تعالى وبين الملائكة أو بينه وبين إبليس، أو بينه وبين السماء والأرض وباقي الكائنات، بل إننا نقف مندهشين أمام التخبط اللغوي سواء عند المفسرين أو اللغويين، الذي يصل في أحيان كثيرة إلى درجة قيام اللغوي أو المفسر باختراع معنى ليس له أصل لأحد الألفاظ، كما في المقدمة التالية.

المقدمة الثالثة :

المشكلة اللغوية، نرجع عادة في محاولة فهم أي مفردة لغوية الى القواميس المعنية، ولكننا ننسى أن القواميس اللغوية وخاصة منها العربية كُتبت بعد زمن ليس بالقليل عن عصر المفردة ومتداوليها، فتكون المفردة قد أخذت معنى آخر في بعض الأحيان غير المعنى

الذي كان لها عند التعامل بها، مثلاً: المفردات القرآنية ترجع الى العصر الجاهلي، والقواميس اللغوية بعيدة عن هذا العصر وأقرب هذه القواميس هو كتاب (العين) للفراهيدي المتوفي سنة ٧٨٦ م، أي أنه وضع مؤلفه بعد وفاة النبي (٦٣٢ م) بأكثر من ١٠٠ عام، مما يعني أن كتابة القاموس تَمَّتْ بعد أن حصل اختلاط واسع مع أمم أخرى مما أدَّى إلى ذوبان مفردات وضياح معاني أخرى، كما أن اللغويين الأوائل كانوا يعيدون معظم الألفاظ الى مصدرها العربي حسب اعتقادهم، في الوقت الذي نجد فيه أن تلك الألفاظ مشتركة مع لغات سامية أخرى، قد نجد المعنى الصحيح في تلك اللغات وليس في القواميس العربية كما في كلمة (فرقان) التي وردت في القرآن سبع مرات، وتم تفسيرها جهلاً أو تعسفاً بأنها (ما يفرق بين الحق والباطل) أو أنها من أسماء القرآن، مع أن المفسرين وضعوا احتمالات أخرى ولكنهم لم يبينوا لنا الأصل الذي اشتقت منه، وهذه جملة من آرائهم:

((وقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ معناه أعطيناه. والكتاب يريد به التوراة. وأما الفرقان فقال الفراء وقطرب وتغلب: يحتمل أن يكون آتى موسى كتاب التوراة، ومحمد الفرقان: كما قال الشاعر: متقلداً سيفاً ورمحاً. وضعف قوم هذا الوجه، لأن فيه حمل القرآن على المجاز من غير ضرورة مع أنه تعالى اخبر انه آتى موسى الفرقان في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ وقال الفراء: هو كلام مثنى يراد به: التوراة. وكُرِّرَ لاختلاف اللفظين: كقولهم: بعداً وسحفاً، وهما

بمعنى واحد. قال الرماني : هذا المثل لا يشبه الآية، لأنه جمع الصفتين لموصوف واحد على معنيين متفقين. والأولى ان يمثل بقولهم : هو العالم الكريم، فجُمعت الصفتان لموصوف واحد على معنيين مختلفين، وقال عدي بن زيد :

وقد دت الأديم لراهشيه وألفي قولها كذباً وميناً

وقال قوم : الكتاب : التوراة، والفرقان : انفراق البحر لبني إسرائيل. والفرج الذي أتاهم كما قال : ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ اي مخرجاً. وقال بعضهم : الفرقان : الحلال والحرام الذي ذكره في التوراة. وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد : أن الفرقان الذي ذكره هو الكتاب الذي أتاه يفرق فيه بين الحق والباطل. وقال ابن زيد : الفرقان : النصر الذي فرق الله به بين موسى وفرعون، كما فرق بين محمد (ص) وبين المشركين. كما قال : ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾. وقال أبو مسلم : هو ما أوتي موسى من الآيات والحجج التي فيها التفرقة بين الحق والباطل^(١).

((وقال ابن إسحاق : فصلاً بين الحق والباطل، يظهر الله به حقكم ويطفئ به باطل مَنْ خالفكم. وقال ابن زيد : فرقاً يفرق في قلوبهم بين الحق والباطل حتّى يعرفوه ويشهدوا به. والفرقان مصدر كالرحمان

(١) الطوسي، التبيان ١ : ١٤٢. والطبرسي، مجمع البيان ٤ : ٤٥٦. والقرطبي ١ : ٣٩٩

والنقصان. تقول : فرقت بين الشيء والشيء أفرق بينهما فرقاً وفروقاً وفرقناً^(١))).

((يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا)) والمعنى أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار. ولما كان اللفظ مطلقاً وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار^(٢))).

((يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا)) نوراً يفرق به بين الحق والباطل من طور العقل الفرقاني^(٣))).

((يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ)) وقال الجبائي : يجعل لكم نصراً وعزاً وثواباً لكم، وعلى أعدائكم خذلاناً وذلاً وعقاباً كل ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة^(٤))).

ولما وجدوا أن (فرقان) بمعنى (فرق يفرق ...) لا تستقيم في بعض المواضع حاول بعضهم أن يبتكر من دون مسوغ لغوي : ((وَقَوْلُهُ : «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» أَي نوراً فِي الدِّينِ مِنَ الشَّبْهِةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ))^(٥))).

(١) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٤ : ٣٤٨. والبغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢ : ٢٤٣. وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ٣ : ٢٣٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب ١٥ : ١٥٣.

(٣) تفسير ابن عربي ١ : ٢٧٧.

(٤) الطوسي، التبيان ٥ : ١٠٧ - ١٠٨.

(٥) التستري، تفسير التستري ٧١.

والحقيقة أن معنى الكلمة نجده في معاجم اللغات السامية الأخرى كالآرامية والسريانية والحبشية بمعنى : (خلاص، تحرر، حرية، مخرج، حكم، إنقاذ، إعتاق، فك، إنقاذ).^(١) ولو قمنا بوضع أحد هذه المعاني في موضع كلمة (الفرقان، فرقان) في القرآن بدلاً من المعنى السائد عند المفسرين واللغويين لرأينا توافقها بشكل أنسب مما ذهبوا إليه. ومن هنا جاءت كلمة (فاروق) أي (المخلص والمنقذ) التي لقب بها اليهود عمر بن الخطاب، وذلك أنه قد انتصر (حسب المفترض) على البيزنطيين المسيحيين الأعداء التقليديين لليهود. كما ذكر ابن سعد والطبري.^(٢)

(١) القاموس المندائي ص ٢٤٣. وخالد إسماعيل، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ٤٠٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٣ : ٢٧٠ وجاء فيه : (أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن صالح بن كيسان قال : قال ابن شهاب : بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر (الفاروق)، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر من ذلك شيئاً). وذكر الطبري ٣ : ١٠٤ (لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال : السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء). وذكر أيضاً في ٣ : ١٠٦ أن كعباً قال لعمر بعد أن فتح الشام، وصلى بالصخرة التي بني عليها أول مسجد في فلسطين : (يا أمير المؤمنين، إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة، فقال : وكيف؟. فقال : إن الروم ←

ولكن بعضاً منهم حالفه الصواب بإيجاد المعنى الفعلي للفظ، ولكن من دون أن يبرروا لنا ذلك، والبعض استدل على ذلك من خلال السياق، والآخر من خلال تفسير القرآن بالقرآن وهو أكثرهم توفيقاً كما فعل مالك بن أنس :

((قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، قال : مخرجاً، ثم قرأ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله. وقال الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

= أغاروا على بني إسرائيل فأدبلوا عليهم فدفنوه (أي دفنوا الهيكل) ثم أدبلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل، ثم أدبلى الروم عليهم إلى أن وليت فبعث الله نبياً على الكناسة فقال : أبشري أورى سلم، عليك الفاروق ينقيك مما فيك، وبعث إلى القسطنطينية نبي فقام على تلها فقال : يا قسطنطينية ما فعل أهلك بييتي أخربوه وشبهوك كعرش وتأولوا علي، فقد قضيت عليك أن أجعلك جلحاء يوماً ما لا يأوى إليك أحد ولا يستظل فيك، علي أيدي بني القاذر وسبوا وودان، فما أمسوا حتى ما بقي منه شيء. وعن ربيعة الشامي بمثله وزاد : أذاك الفاروق في جندي المطيع ويدركون لأهلك بئارك في الروم، وقال في قسطنطينية : أدعك جلحاء بارزة للشمس لا يأوى إليك أحد ولا تظليته).

وقال آخر :

وكيف أرجي الخلد والموت طالبي

وما لي من كأس المنية فرقان^(١).

وذكر الطبري ثمانية عشر رواية تفسر معنى (فرقان) بـ (منجى أو مخرج) وروى ذلك عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وعبيد والسدي وقتادة^(٢) و(عطاء)^(٣) كما ذكر مفسرون آخرون أن من معاني فرقان (منجى ومخرج)^(٤).

وكما في كلمة (جو) التي وردت مرة واحدة في القرآن : ﴿لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (النحل : ٧٩).

فقد فُسر (الجو) هنا بأنه : ((الهواء المتباعد من الأرض في سمت

(١) القرطبي ٧ : ٣٩٦.

(٢) الطبري، جامع البيان ٩ : ٢٩٦ . ٢٩٨.

(٣) النحاس، معاني القرآن ٣ : ١٤٧.

(٤) القرطبي ١ : ٣٩٩. والطبرسي، مجمع البيان ٤ : ٤٥٨ . ٤٥٩. وتفسير مقاتل بن سليمان ٢ : ١٣. وعبد الرزاق الصنعاني، تفسير القرآن ٢ : ٢٥٨، والثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٤ : ٣٤٨. والبغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢ : ٢٤٣. وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ٣ : ٢٣٥، والطوسي، التبيان ٥ : ١٠٧ - ١٠٨.

العلو)).^(١) ((وقوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي من جهة العلو، وهي : جو الأرض)).^(٢)

((أَنَّ الجَوَّ معناه الحقيقيّ هو الفضاء المحدود المضاف إلى شيء، يقال جَوَّ السماء وجَوَّ الوادي وجَوَّ البيت وغيرها. فالجَوَّ أو الفضاء عبارة عن محيط متّسع مضاف إلى شيء ... والتعبير بالجَوَّ دون الفضاء : فَإِنَّ الفضاء يلاحظ فيه جهة التوسعة، والجَوَّ عبارة عن نفس المحيط المتّسع من دون لحاظ قيد التوسعة)).^(٣) ((الجو : الهواء ... الجو : ما بين السماء والأرض ... في جو السماء، يعني : في هواء السماء بينها وبين الأرض)).^(٤)

وهكذا تُفسر كلمة (جو) إلى هذا اليوم على أنها الفضاء وجهة العلو، بينما نجد أن نفس اللغويين وغيرهم يؤكدون أن معنى الكلمة هو (داخل أو باطن) كما هو الاستعمال الحالي لها في اللهجة العراقية، حيث يقولون (جَوَّة، ا) أي (داخل، باطن) :

(١) الطبرسي، تفسير جوامع الجامع ٢ : ٣٤١.

(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٥ : ٢٢٧.

(٣) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٢ : ١٤٦.

(٤) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن ١٤ : ٢٠٠. والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ١٠٤. والطريحي، تفسير غريب القرآن ١٨. والعين، الفراهيدي ٦ : ١٩٦. والجوهري، الصحاح ٦ : ٢٣٠٦. وابن منظور، لسان العرب ١ : ٤٩٢.

((عن السدي في قوله : ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ قال : جوف السماء)).^(١)
 ((عن قتادة، قوله : ﴿مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي في كبد السماء)).^(٢)
 ((وفي حديث سلمان ((رضي الله عنه)) : (إن لكل امرئ جوانياً وبرانياً، فمن يصلح جوانيه يصلح الله برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد الله برانيه) أي باطناً وظاهراً، وسراً وعلانية، وهو منسوب إلى جو البيت وهو داخله، وزيادة الألف والنون للتأكيد)).^(٣) ((ابن سيده : والجَوُّ والجَوَّة المنخفض من الأرض؛ ... وجَوُّ كلِّ شيءٍ : بَطْنُهُ وداخله، وهو الجَوَّة أيضاً؛ وأنشد بيت أبي ذؤيب :

يَجْرِي بِجَوَّتِهِ مَوْجُ الْفَرَاتِ، كَأَنْضَاحِ

الْخُرَاعِي حَازَتْ رَنْقَهُ الرِّيحُ

قال : وجَوَّتُهُ بطنُ ذلك الموضع؛ وقال آخر :

لَيْسَتْ تَرَى حَوْلَهَا شَخْصاً، وَرَاكِبَهَا

نَشْوَانُ فِي جَوَّةِ الْبَاغُوتِ، مَخْمُورُ^(٤))).

وكلمة (جو) من الألفاظ المشتركة مع بعض اللغات السامية، فقد

(١) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم ٧ : ٢٢٩٤.

(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن ١٤ : ٢٠١.

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ١ : ٣١٩. ورواه عن النبي (صلى

الله عليه وآله وسلم) الشيخ الطوسي في الأمالي ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ١ : ٤٩٢ - ٤٩٣.

جاءت في : ((الأرامية : (جو) بمعنى : داخل. وفي الأرامية والسريانية والمندائية (جوا)، بمعنى : الداخل، الحيز)).^(١) وهكذا كلمات عديدة سنجد معانيها في معاجم اللغات السامية بشكل أصبح مما هي عليه في المعاجم العربية. وقد يقال إن اللفظة (جو) معانٍ متعددة منها (الهواء، الداخل)، وهذا وارد في الكثير من المفردات، إلا أن موردها حسب الآية أعلاه لا يعني أكثر من (داخل السماء)، ولا يوجد عند اللغويين ما يدعم أن معناها (الهواء). وإنما فهم منها اللغويون لاحقاً هذا المعنى نتيجة السياق لأن السماء جهة العلو، بالتالي لا بد أن يكون (الجو) هنا أيضاً جهة العلو، وهو تبادر لا يصح في تفسير آيات القرآن.

وهذا لا يعني أن القرآن استورد مفردة من اللغة السريانية أو الأرامية أو العبرية أو غيرها، وإنما نعلم أن هذه اللغات لغات شقيقة، وأنها ترجع في الأصل الى لغة أم واحدة، ولكن ميزة اللغات الأخرى غير العربية أنها لغات مدونة منذ بداياتها كما في البابلية والأشورية والأرامية والمندائية والعبرية والسريانية ما إليها، ومن المهم الإشارة إلى مساهمة لا بأس بها لعالم ألماني (كريستوف لكسمبورغ) في كتابه (القراءة السريانية الأرامية للقرآن : مساهمة في تفسير لغة القرآن) عام ٢٠٠٠ إصدار (دار الكتاب العربي) في برلين، حاول تفسير حوالي ٥٠٠ مفردة من مفردات القرآن على ضوء المعاجم الأرامية والسريانية، وهي

(١) خالد إسماعيل علي، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ١٠٨.

محاولة مفيدة في غالبها. كما قد يقال إن الكاتب ربما كان يحاول أن يقدح في نبوة نبي الإسلام من جهة أنه استقى علومه من خلفيات سريانية - مسيحية، وهو ما لا سبيل إليه، وسيكون لنا مع هذا الاتجاه وقفة إنشاء الله تعالى.

ولعل من أخطر ما تعرض له النص هو تفسير المفردة على ضوء الفهم المعاصر للغوي صاحب القاموس أو التفسير، مع أن المعنى المعاصر له بعيد كل البعد عن المعنى الفعلي للمفردة عند وضعها أحياناً كثيرة. ومنها مفردة (الحوت) والتي جعلت قسرياً لمعنى واحد وهو (الحوت) بمعنى الحيوان البحري والسمك، إلا أننا سنجد أنها لم توضع بالأصل لهذا المعنى، بل ويمكن القول أنها لم توضع لهذا المعنى إطلاقاً بناء على الأدلة التي سنسردها من نفس متبنيات ومناهج اللغويين العرب، كما لاحظنا في تفسيرهم لكلمة (جو) أعلاه، وإنما تعارف المفسرون واللغويون على تعاريف وتفسيرات شعبية أو دخيلة فرضت نفسها بقوة مع مرور الزمن حتى أصبحت هي الأصل خطأ.

ويمكن أن نقول : أن تفسير أو ترجمة أو فهم (الكلمة) لا يكون على ضوء معناها مجردة أو سياقها، وإنما فرضت العقيدة نفسها على تفسيرها، والعقيدة بمعناها الأعم من الدين أو الأسطورة أو التفسير الشعبي، كما نلاحظ ذلك في تفسير لفظ (الجن) فالمعنى المعروف أنه من الاستتار والتخفي، مع أننا لو راجعنا كل النصوص المتوفرة، وأهمها ما ورد في القرآن، فنسجد أن معنى (الخفاء) معدوم في السياق، ولكن

فرضت العقيدة الشعبية أو الأسطورية نفسها بقوة، حتى أصبح التفسير والمفسرون أسارى لهذا التفسير، ويقرب من ذلك ما سنراه في تفسير لفظ (داج) العبري (سمكة) على سفر يونان، ونفس الكلام يقال عن لفظ (حوت) الوارد لنفس القصة في القرآن، مع أن معنى اللفظة لا أثر له في اللغة، وحتى ما نعينه بقولنا (اللغة) هو الآخر خاضع لتفسير اللغوي، الذي استقى جلّ مفاهيمه من محيطه الحاضر، أو الميراث الشفوي والإدعاءات بوجود شواهد مشكوك في صحة معظمها دون ريب، لذلك عادة ما نجد الاضطراب في التفاسير اللغوية أو الشك والتعدد في معنى المفردات.

ملخص القصة كما جاءت في التوراة : ((أمر الله يونان بالذهاب إلى نينوى، وحاول يونان التملص من هذا التكليف، فأبحر على سفينة متجهة إلى ترشيش، فحدثت عاصفة كادت السفينة فيه أن تغرق، فقاموا بالاقتراع لمعرفة المتهم بينهم، فوقعت القرعة على يونان، فقال البحارة (أيها الرب لا تهلكنا من أجل حياة هذا الرجل، ولا تحملنا دماً بريئاً لأنك يا رب فعلت كما شئت). فألقي يونان في البحر، فآلتقمه الحوت، وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت الى البر. وتوجه الى نينوى وكانت مدينة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام ولكنه استطاع اجتيازها في يوم واحد. وبعد أن حذرهم آمن شعب نينوى بالرب، وقام ملكها عن عرشه وخلع عنه حُلَّته وارتدى المسح وجلس على الرماد)).

ذكر د. كمال الصليبي : ((يعتقد معظم أهل الاختصاص أن تدوينه -

سفر يونان - تَمَّ بالعراق ربما قرابة عام ٣٥٠ أو حتى ٢٥٠ قبل الميلاد. أما المصادر أو التقاليد التي أخذت عنها قصة يونان، فلا بد أنها أقدم بكثير من نصها المدون كما نقرأها اليوم. ومن الدليل على ذلك أن هذا النص يحتوي على أسماء كثيرة للأماكن أبقاها المدون العراقي كما سمعها من الرواة أو قرأها من المصادر التي كانت لديه، دون أن تكون له أي معرفة بمواقع الأماكن التي تشير إليها هذه الأسماء).^(١)

ترشييش :

وللتعرف على جغرافيا الحدث، لم يذكر لنا النص من أي موضع انطلق يونان، مع أن مفسري التوراة يقولون أنه من (جت حافر) وهي في أعلى (الجليل) بجوار (الناصره)، ولكنه ركب سفينة باتجاه ترشييش، وهي تقع حسب مفسري التوراة في إسبانيا، وتعرف بطرطوسة، وقد جاء ذكر ترشييش في مواضع متعددة من التوراة، فهل أن ترشييش حسب النص التوراتي تقع في إسبانيا كما يؤكد علماء التوراة : (ترتيسوس وهي واقعة في جنوب إسبانيا قرب جبل طارق (هيرودت جزء ٤ : ١٥٢) ولعل ترتيسوس هذه هي قرطجنة المدينة الواقعة شمال إفريقيا وكانت قائمة إلى أوائل العصر المسيحي).^(٢) أم يجب البحث عنها في بلاد

(١) خفايا التوراة ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢١٥ - ٢١٦.

أخرى؟.

بداية علينا أن نتعرف على مواصفات ترشيش حسب ورودها في التوراة :

((فقد كان سليمان يملك أسطولاً بحرياً تجارياً يعمل بالمشاركة مع رجال حيرام، فكان يبحر إلى ترشيش، ثم يعود مرة كل ثلاث سنوات محملاً بالذهب والفضة والعاج والقروود والطواويس)). الملوك الأول ١٠ : ٢١.

من خلال المواد التي كانت تجلب من ترشيش يمكننا أن نحدد جهتها، ونلاحظ في هذا النص أنها كانت تُصدّر لمملكة سليمان الذهب والفضة والعاج والقروود والطواويس، ومن المؤكد أن هذه المواد مجتمعة كانت تستورد من الهند وتشمل السند والبلاد والجزر الشرقية المجاورة لها.

((طاووس : اللفظة العبرية (تكسيم). كانت الطواويس تحمل مع العاج والقروود إلى الملك سليمان على سفن ترشيش (١ مل ١٠ : ٢٢، وأخبار الثاني ٩ : ٢١). ولفظتا العاج والقردة بالعبرية هنديتان، ومن الممكن أن تكون كلمة (تكي) مشتقة من لغة المالابار توكاي أو توغاي أو من التميلية القديمة تكاي أو تفاي التي تعني الطاووس هو طائر هندي يوجد في الغابات ويهرب سريعاً إذا أزعج، وحيث أن أهل البلاد لا

يقبلون أن يعامل بقسوة فإنه يشق طريقه إلى القرى)).^(١)
وهذه الإشارة الأولى على أن ترشيش ليست في إسبانيا وإنما بلاد تقع
في الهند أو بالقرب منها.
(وعمل يهوشافاط سفن ترشيش لكي تذهب إلى أوفير لأجل الذهب
فلم تذهب لأن السفن تكسرت في عصيون جابر)). الملوك الأول ٢٢ :
٤٨.

وهذا النص يدل على أن أوفير تقع ضمن جهة ترشيش، وقد اختلف
في موضعها حسب (قاموس الكتاب المقدس) حيث اقترحت عدة
مواضع هي : ((جنوب بلاد العرب، أو اليمن، شاطئ أفريقيا الشرقي،
بلاد الهند، وكان يجلب من أوفير الذهب وخشب الصندل والحجارة
الكريمة حسب سفر الملوك الأول ٩ : ٢٦ - ٢٨ و ١٠ : ١١)).^(٢)
ونلاحظ أن خشب الصندل كان يستورد من أوفير التي اختلف في
موضعها، ولكننا من خلال معرفة مصدر خشب الصندل يمكن أن
نحدد موقعها الجغرافي، جاء في قاموس الكتاب المقدس عن مصدر
خشب الصندل : ((والشجرة أصلها من الهند والجزر الشرقية)).^(٣)
وجاء في المزامير ٧٢ : ١٠ ((ملوك ترشيش والجزر يحملون إليه

(١) قاموس الكتاب المقدس ٥٨١.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ١٣٨.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٥٥٤.

الهدايا. ملوك شبا وسبأ يقدمون عطايا)). أي أنهم كانوا يتعاملون مع سليمان كملك قوي له القدرة على أن يصل بسلطته إليهم، أو أن له علاقات تبادل تجاري واسع ومؤثر. وهذا لا يتوقع بخصوص إسبانيا. إذ لا يوجد أثر واحد أو مؤشر سواء في إسبانيا أو بلاد الشام والعراق على وجود مثل هذه العلاقة.

وجاء في أشعياء ٦٦ : ١٩ ((وأبعث بعض الناجين منهم إلى الأمم : إلى ترشيش، وفول، ولود، المهرة في رمي السهام)).

أي أن هذه المواضع أو الأمم (ترشيش وفول ولود) متقاربة جغرافياً أو في اتجاه واحد، ونعلم أن (لود) الواردة هنا هم: ((الليديون الذين استوطنوا آسيا الصغرى (تركيا الحالية) وأسسوا مملكتهم في القرن السابع ق.م. حتى قضى عليها كورش الفارسي. وكانوا يتكلمون لغة هندو أورية)).^(١)

خلاصة ما ورد في التوراة أن ترشيش تقع في الهند أو البلاد القريبة منها حيث تستطيع أن تمارس العمل التجاري معها، وعلينا البحث عنها في معاجم أخرى :

ذكر الحموي : ((ترشيش : بالضم ثم السكون، وكسر الشين الأولى معجمة، وياء : ناحية من أعمال نيسابور، وهي اليوم بيد الملاحدة، وهي

(١) أنظر: بولس الفغالي، المحيط الجامع ١١٠٦ - ١١٠٧. وقاموس الكتاب

طرثيث، وستذكر في حرف الطاء)).^(١)

وذكرها ابن الاثير ضمن البلاد الشرقية.^(٢)

من الواضح أن ترشيش التي ذكرها الحموي وابن الاثير إما هي نفسها المعنية في التوراة أو أنها موضع سميت تشيهياً واستذكراً لترشيش الأصل، والتي لا بد أن تقع في جهة الشرق وفق هذه المعطيات وليس في الغرب.

نينوى :

تبعد نينوى عن فلسطين نحو ٨٠٠ كم. أي يحتاج المسافر إلى ما لا يقل عن ٢٣ يوماً ليصل بمعدل سير القوافل من ٣٠ - ٣٥ كم في اليوم الواحد في أحسن التقادير.

فهل أن نينوى الوارد ذكرها في سفر يونان هي عاصمة الامبراطورية الآشورية أم أن هناك نينوى أخرى؟. لتتحدث أولاً عن نينوى الآشورية لنرى مدى صلاحيتها لتكون المعنية في الحدث.

((نينوى عاصمة الامبراطورية الآشورية التي ازدهرت ازدهاراً عظيماً في بعض القرون السابقة للميلاد. وقد شيدت على الضفة الشرقية من نهر دجلة، ولكن الامبراطورية الآشورية أخذت في التقهقر والانحلال

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ. ١٢ : ١٥٣.

في أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وفي سنة ٦٢٥ ق.م. أعلن نبوبلاسر، حاكم بابل، استقلاله عن نينوى ثم في سنة ٦١٢ ق.م. تحالف مع جيرانه أهل مادي وهاجم نينوى نفسها ودمرها، وساعده على ذلك فيضان دجلة وطغيان مياهه على الشوارع والساحات. وتحولت المدينة العظيمة إلى مجرد أسطورة، وتحول عمرانها إلى آثار عفى عنها الزمن، فنسيها اليونان والرومان، ولم يكتشف بقاياها إلا بعض الأثرين والمؤرخين في منتصف القرن الماضي (التاسع عشر)).^(١)

ولكي نعرف كيف كانت نينوى في تلك الفترة علينا أن نعرف الزمن الذي عاش فيه يونان، فهو قد عاصر ((يربعام الثاني ٧٨٣ - ٧٤٣ ق.م. وهو الملك الثالث عشر من ملوك المملكة الشمالية - إسرائيل)).^(٢)

وهذا يعني بكل وضوح أن يونان قد عاصر أحد ملوك آشور الآتين : أدد نيراري الثالث ٨١٠ - ٧٨٣ ق.م. شلمنصر الرابع ٧٨٢ - ٧٧٣ ق.م. آشور دان الثالث ٧٧٢ - ٧٥٥ ق.م. آشور نيراري الخامس ٧٥٤ - ٧٤٥ ق.م. تغلاث بيلاصر الثالث ٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م. شلمنصر الخامس ٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م. سرجون الثاني ٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م..

ويرجح طه باقر أن حدث يونس : ((في زمن الملك الآشوري

(١) قاموس الكتاب المقدس ٩٩٠ - ٩٩١. مختصراً.

(٢) الفغالي، المحيط الجامع ١٣٧٩.

أسرحدون بن سنحاريب (القرن السابع ق.م.)).^(١) وهذا ليس بصحيح، لأن المفترض أن يونس عاش في القرن الثامن كما في أعلاه، وأما أسرحدون فقد حكم بين ٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م.^(٢) فمن المستبعد أن يعيش يونس كل هذه المدة، كما أن التوراة تتحدث عن ملك نينوى الذي أذعن ليونس، بينما نعرف أن أسرحدون قاتل مملكة يهوذا و((أسر ملكها (منسّى) سنة ٦٧١ ق.م.)).^(٣) بالتالي لم تكن علاقته مع اليهود بالتي تتيح لنا افتراض أنه من الممكن أن يتساهل أو يستجيب لدعوة نبي من أنبيائهم، حتى وإن كان هذا النبي من أبناء المملكة الشمالية المعادية لمملكة يهوذا.

ويقترح مفسرو التوراة اقتراحاً آخر لملك آخر من ملوك آشور : ((أما توبة أهل نينوى، فلا تعني أن كل سكانها قد آمنوا ((ببهبه)) إله إسرائيل، فهو يصف أن توبتهم كانت عن رهبة من التهديد بخراب المدينة. وبينما لا يسجل التاريخ العالمي هذه الحادثة، (أي حادثة التوبة)، فهناك ما يدل على إمكانية حدوث ذلك، ففي العقد السابق (٧٦٥ - ٧٢٩ ق.م) شاهدت نينوى كسوفاً كلياً للشمس، كما اجتاحتها وباءان خطيران، مما جعل الأهالي على استعداد لتوقع مثل هذه

(١) من تراثنا اللغوي القديم ٢٠٠.

(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ : ٦٢٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٩٢٥.

الأخطار، وبخاصة أنهم لا بد قد عرفوا ما حدث من معجزات مع النبي الذي جاء لإنذارهم بالخطر الذي يتهددهم، مع ملاحظة أن أحد ملوك آشور، وهو هدد (أدد) نيراري الثالث، قد أمر بقصر الصلاة على إله واحد، هو الإله ((نبو)) وإذا كان يونان قد عاصر حكم نيراري الثالث هذا (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م)، فمن المحتمل أن عقيدة التوحيد اليهودية التي كان يمثلها يونان، قد وجدت جواً أكثر ملاءمة مما في مجتمع وثني متعدد الآلهة)).^(١)

وهنا نلاحظ أكثر من موضع متهافت يتعارض مع السفر، فهو يفترض من البداية أن أهل نينوى لم يتوبوا جميعاً بل قسم منهم، مع أن السفر صريح بتوبة أهل نينوى أي كلهم أو السواد الأعظم منهم، لأن الملك قد تاب فمن غير المتوقع أن لا يعلن مثل هذا الإيمان خاصة لحكام طغاة قساة كالآشوريين، ناهيك أن المفسر قد اعترف مقدماً أنه لا يوجد في تاريخ نينوى الآشورية أية حادثة مشابهة إلى حين زوالها، كما أن احتمال أنه لا يكون الملك التائب الموحد هو أدد نيراري الثالث بلا مسوغ، وحتى مع صحة نسبة دعوة أدد نيراري الثالث إلى جمع الآشوريين على عبادة نبو فهذا لا ينفع أيضاً فهي لا زالت عبادة وثنية. ومن غير المتوقع أن يكون يونان قد عاصر جميع هؤلاء الذين امتدت مدتهم أكثر من ١٠٠ عام، ولكننا نضع كل ما يمكن احتمالاً وأبعد من

(١) دائرة المعارف الكتابية ٨ : ٣٥٧.

ذلك. ولكن لم يرد عن أي واحد من هؤلاء الملوك أنه ترك عبادة إلههم القومي آشور أو خضع لأي من أنبياء بني إسرائيل، بالتالي فلا مفر من البحث عن موضع آخر يحمل نفس الاسم.

ومن الملاحظ أننا لا نجد أية إشارة إلى آشور في سفر يونان، مع أن مملكة آشور في الزمن المفترض لسفر يونان كانت قائمة، والآشوريون هم أهلها، فمن غير المنطقي أن لا يشير السفر إليهم نهائياً. كما أن السفر لم يذكر ملك آشور كما هي عادة التوراة بل ذكر (ملك نينوى). ونجد أن بعض مفسري التوراة المحدثين من رفض تاريخية هذا السفر، أي لم يوجد مثل هذا الحدث، واعتبره رواية تمثيلية موضوعة في قالب تاريخي، ومن أهم الأسباب التي يركزون عليها: ((عدم الاتفاق بين ما قيل في توبة أهل نينوى من كبيرهم إلى صغيرهم، وما يعرف عن تاريخ نينوى وما جاء في سفر ناحوم (ويل لمدينة الدماء، كلها مألانة كذباً وخطفاً) (نا ٣ : ١). (جرحك عديم الشفاء. كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك). (٣ : ١٩). وناحوم عاش بعد يونان)).^(١) من الواضح أن إشكالية هؤلاء المشككين منطقية وواقعية ومتطابقة مع واضحات التاريخ، في عدم حصول الحدث في نينوى الشمالية، أما ما جاء في سفر النبي ناحوم فهو بالفعل يتحدث عن نينوى الشمالية فقد ذكر آشور كقرينة على ذلك، كما أنه ((مارس رسالته بين سنة ٦٦٣

(١) قاموس الكتاب المقدس ١١٢٦ - ١١٢٧.

ق.م. وسنة ٦١٢ ق.م.)).^(١) أي عاصر كل من (((آشور بانيبال) و(آشور
اطل ايلاني) و(سين شومو ليشر) و(سين شار اشكن) وهؤلاء حكموا
بين ٦٦٨ - ٦١٢ ق.م.)).^(٢)

ونظراً لأن الجميع يعتقد أن هناك نينوى واحدة فقد حصل هذا
الارتباك في تفسير الأحداث ومعالجتها من ناحية تاريخية. كما أن
الإنجيل ذكر صراحة أن نينوى ورجالها كانوا موجودين في زمن
المسيح، والمفترض أن نينوى خربت إلى غير رجعة منذ سنة ٦١٢ ق.م.
بالتالي فحديث الإنجيل عن نينوى أخرى كانت قائمة في عصر المسيح
وسيكون لها دور في المستقبل كما تنبأ المسيح :

((رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا
بمناداة يونان. وهوذا أعظم من يونان ههنا)). متى ١٢ : ٤١. ولوقا ١١ :
٣٢.

كما أن من المشاكل التي لم يلتفتوا إليها الاختلاف بين اللغتين العبرانية
والآشورية، وهذا على فرض أن يونان قد قدم من أورشليم في فلسطين
الحالية (وهو ما لا نقول به)، إذ من الواضح أن يونان كان سيواجه
مشكلة جسيمة بخصوص تبليغ رسالته الى أهل نينوى، فهم يتحدثون
اللغة الآشورية وهي اللهجة الثانية من لهجات اللغة الأكديّة، بينما يونان

(١) الفغالي، مصدر سابق ١٢٨٧.

(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ : ٦٢٥.

يتحدث باللغة العبرية، وتوجد قاعدة أساسية لجميع الأنبياء أنهم يعثون لأقوام يتكلمون لغتهم، وهي قاعدة ذكرها القرآن: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

وكل هذه القرائن تستبعد أن تكون نينوى الآشورية هي المقصودة في قصة يونس، ويهون الأمر أن هناك موضعين آخرين بأسم (نينوى) في جنوبي العراق، أحدهما في قضاء الشطرة حالياً شمال مدينة الناصرية في محافظة ذي قار جنوب العراق، وهي من مدن دولة لجش. وتقع على مسافة ١٠ كم جنوب شرق مدينة لجش، ولمدينة نينا اسمان تعرف بهما أيضاً هما (سيرانا وسرگل).

إلا أن هذه المدينة لا يحتمل أنها المقصودة في سفر يونان (يونس)، لأن عصر الحدث هو القرن الثامن قبل الميلاد، ولم يبق لهذه المدينة أثر يذكر في تلك الفترة، ومع فرض بقاءها في ذلك العصر فمن غير المتوقع أن يكون تعداد سكانها مائة ألف أو يزيدون كما نص عليه القرآن، وعلمنا مما مضى أن نينوى المقصودة وصفت بأنها المدينة العظيمة ويستغرق اجتيازها ثلاثة أيام وهي مواصفات ليست لهذه المدينة بحال. كما أن التاريخ الديني لم يشر الى هذه المدينة في أي مناسبة من مناسبات الحدث، كما هو الحال مع نينوى الموصلية والكربلائية. كما أن سترابون الذي عاش في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد يذكر أن الموضع موجود في عصره وهو ما لا ينطبق على نينا (سرگل) في الشطرة، لأنها لم يعد لها أثر ذلك الوقت.

وهو ما يمكن أن نراه بوضوح من خلال ما ذكر الأستاذ طه باقر : ((أما اشتقاق اسم نينوى فقد وردت في الكتابات القديمة المسمارية بالطريقة الرمزية (Ideograms) بهيئة (ننوا) (Ninua) أو (نينا) (Nina) وهي بنفس العلامة المسمارية التي يكتب بها اسم المدينة السومرية (نينا) (تل سرغل الآن) التي كانت إحدى المدن التابعة لدويلة لجش في الجنوب (في منطقة الناصرية) والتي ازدهرت فيما يسمى في تاريخ العراق القديم باسم عصر السلالات أو عصر دولة المدن ... وكتب اسم المدينة أيضاً بمقاطع مسمارية صوتية بهيئة (آلو - ني - نو) أو (آلو - ني - نا - آ) أي مدينة نينوى التي حافظت على اسمها في المصادر العربية الى يومنا هذا)).^(١)

وذكر أيضاً أن عصر السلالات أو عصر دولة المدن بأطواره الثلاثة : ((دام ما بين خمسة أو أربعة قرون، من ٢٩٠٠ - ٢٣٧٠ أو من ٢٨٠٠ - ٢٣٧٠)).^(٢) قبل الميلاد، ولو قلنا بتزامن دولة لجش الثانية مع سلالة أور الثالثة : ((التي دامت زهاء القرن الواحد ٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م.)).^(٣) فإننا في أحسن الأحوال سنكون بعيدين بأكثر من ١٢٠٠ سنة وهو الفاصل الزمني بين عصر ازدهار نينا التابعة لدولة لجش وعصر النبي يونس

(١) طه باقر، من تراثنا اللغوي القديم ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ : ٢٥٢.

(٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ : ٣٨٠.

المفترض، ومن الواضح أن (نينوى) التي يتحدث عنها سفر يونان كانت مزدهرة ووصفها بأنها (المدينة العظيمة).

فإذا تبين لنا عدم فرضية أن تكون نينوى عاصمة الآشوريين هي المعنية بالحدث، ونفس الكلام بخصوص (نينوى) في محافظة ذي قار، لم يتبق أمامنا سوى فرض أن تكون (نينوى) الثالثة أي كربلاء هي المقصودة. ولكن علينا أولاً أن نشير إلى النصوص والمصادر التي ذكرتها بهذا الاسم :

ذكر ابن شبة النميري : ((عن ابن شهاب قال : وجد قبر على جماء أم خالد أربعون ذراعاً في أربعين ذراعاً، مكتوب في حجر فيه : أنا عبد الله من أهل نينوى، رسول رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل هذه القرية، فأدركني الموت، فأوصيت أن أدفن في جماء أم خالد، قال فسألت عبد العزيز عن قوله : (أهل نينوى)، قال : (نينوى) موضعان : فأحدهما بالسواد بالطف حيث قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، والآخر قرية بالموصل وهي التي كان فيها يونس النبي (صلى الله عليه وسلم) ولسنا ندري أي الموضعين أراد)).^(١)

ذكر الطبري وابن الأثير : ((فلما أصبح (أي الإمام الحسين) نزل فصلى الغداة ثم عجل الركوب، فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرقهم، فيأتيه الحر بن يزيد فيردهم فيرده، فجعل إذا ردهم إلى الكوفة رداً شديداً

(١) تاريخ المدينة ١ - ١٤٩.

امتنعوا عليه فارتفعوا، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نينوى المكان الذي نزل به الحسين)).^(١)

وذكر الطبري: ((وأخذ الحر بن يزيد القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية، فقالوا: دعنا ننزل في هذه القرية، يعنون نينوى، أو هذه القرية، يعنون الغاضرية، أو هذه الأخرى، يعنون شقية...)).^(٢)

وذكر ابن الأثير: ((وفيها (أي في سنة ٢٥١ هـ) ظهر إنسان علوي بناحية نينوى من أرض العراق، فلقبه هشام بن أبي دلف في شهر رمضان فقتل من أصحاب العلوي جماعة وهرب فدخل الكوفة)).^(٣)

وروى أحمد في مسنده: ((عن عبد الله بن نجى، عن أبيه أنه سار مع علي، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو سائر إلى صفين فنادى: اصبر أبا عبد الله بشط الفرات)).^(٤)

وذكر تحسين آل شبيب عن نينوى الكربلائية: ((وكانت قرية عامرة

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٨. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ٤: ٥١.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٩. ومسكويه، تجارب الأمم ٢: ٦٨.

(٣) الكامل في التاريخ. ٧: ١٦٥.

(٤) مسند أحمد: ١: ٨٥. والهيثمي، مجمع الزوائد ٩: ١٨٧. وابن أبي شبة الكوفي، المصنف ٨: ٦٣٢. وأبو يعلى الموصلي، المسند ١: ٢٩٨. والطبراني، المعجم الكبير ٣: ١٠٥. وغيرهم من المحدثين.

في العصور الغابرة، تقع شمال شرقي كربلاء، وهي الآن سلسلة تلول أثرية ممتدة من جنوب سدة الهندية حتى مصب نهر العلقمي في الأهوار وتعرف بتلول نينوى^(١).

وذكر د. مصطفى جواد: ((وزعم الاستاذ فيرد هوفر أن سترابون الجغرافي اليوناني المولود في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ذكر في كتابه (وصف ما بين النهرين: آشورية وبابل وكلدية) ذكر نينوى ثانية غير نينوى الشمالية، فإذا صح زعمه كانت نينوى الجنوبية هي المقصود ذكرها)).^(٢) أي كربلاء. ومن الواضح أن مصطفى جواد لم يلتفت إلى وجود (نينوى) الجنوبية الثانية في الشطرة. وذكر أيضاً:

((وعلى حسابان (كربلا) من الأسماء السامية الآرامية أو البابلية، تكون القرية من القرى القديمة الزمان كبابل وأربيل، وكيف لا وهي من ناحية نينوى الجنوبية، قال ياقوت الحموي: (نينوى بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو بوزن طيطوى ... وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى، منها كربلاء التي قتل بها الحسين، رضي الله عنه). وقال في كتاب له آخر: (نينوى موضعان: ... نينوى بلد قديم كان مقابل مدينة الموصل. ونينوى كورة كانت بأرض بابل منها كربلاء التي قتل بها الحسين بن علي ((عليهما السلام)). ونينوى من الأسماء الآشورية. ولا

(١) مرقد الإمام الحسين (عليه السلام) ٢٤.

(٢) موسوعة العتبات المقدسة ٨: ٣٢.

نشك في أن نينوى السفلى سميت باسم نينوى العليا إحدى عواصم الدولة الآشورية المشهورة في التاريخ. سُمِّيت إما لمعارضتها وإما لإدانة ذكراها، على عادة الناس في تسمية البلدة التي ينشئون بها بعد المهاجرة من بلادهم والجلاء عنها، ويسمون بها باسم بلدتهم التي هاجروا منها. وهذا معروف قديماً وحديثاً^(١).

وما ذكره د. مصطفى جواد من أن نينوى الجنوبية سميت باسم نينوى الشمالية يخلو من الدقة، بل العكس هو المرجح، فلم يذكر أن هجرة حصلت من الشمال إلى الجنوب، بينما العكس هو الصحيح، إذ تابعت الهجرات والتهجير من جنوب العراق إلى شماله وإلى الشمال الشرقي منه، ومن المرجح أن أصول الآشوريين تعود إلى الأكديين في الجنوب وقد هاجروا من أزمان بعيدة كما أكَّد ذلك الأستاذ د. طه باقر: ((الآشوريون كما ذكرنا مراراً من الأقوام السامية أي المتكلمين بإحدى لغات عائلة اللغات السامية، وهي السامية الشرقية، والتي سميناها اللغة الأكديّة، وفرعها الثاني اللغة البابلية حيث تفرعت اللغة الأم إلى هذين الفرعين في مطلع الألف الثاني ق.م. ومع أن نظرية كون الجزيرة العربية مهد الساميين لا زالت النظرية المعول عليها، بيد أن الكثير ممن سمو بالساميين، ومنهم الآشوريون والأموريون وغيرهم لم يأتوا رأساً من الجزيرة إلى شمال العراق، وإنما المرجح أنهم استوطنوا من بعد

(١) موسوعة العتبات المقدسة ٨: ١٥ - ١٦.

هجرتهم البعيدة في مكون آخر، في بوادي الشام وبادية العراق وما بين النهرين، كما كان الحال مع الأموريين، ثم حلُّوا في زمن ما من الألف أو مطلع الألف الثالث ق.م. في موطنهم الذي حددناه (أي شمال العراق). وقد ذهب بعض الباحثين، ولا سيما القدامى منهم، إلى أن الآشوريين نزحوا إلى موطنهم من الجنوب، أي من بلاد بابل في زمن ما، لعله إبان الهجرة الأولى للساميين إلى وادي الرافدين، فكان الأكديون في الجنوب، ثم هاجر قسم من هؤلاء الساميين وهم الآشوريون إلى الشمال، وفي التوراة (سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر) ما يشير إلى ذلك^(١).

ولا شك أن نينوى التي تقع ضمن كربلاء حالياً كانت جزءاً من المملكة الأكدية.

القرعة والاحتكام للنهر :

قرأنا في السفر أعلاه أن العاصفة عندما عصفت بالسفينة التي كانت تقل يونان ورفاقه، فإنهم قاموا بالافتراء لمعرفة المتهم بينهم، فوقع القرعة على يونان، فقال البحارة (أيها الرب لا تهلكنا من أجل حياة هذا الرجل، ولا تحملنا دماً بريئاً لأنك يا رب فعلت كما شئت). فألقي يونان

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ١ : ٤٧٤.

في البحر.

فما هي الخلفية الثقافية العقائدية التي دعت هؤلاء الى التفكير بهذه الطريقة والحل للتخلص من العاصفة؟.

وهنا ثلاثة أمور :

- أن العاصفة، بالتالي كل الظواهر الكونية مرتبطة بالإنسان، أي أنها نتاج فعل قام به الإنسان إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

- اللجوء إلى القرعة لمعرفة سبب المشكلة أو حلّها.

- الإلقاء في المياه، وهو يعني أن من وقعت عليه القرعة فهو مسبب المشكلة، بالتالي يترك بمواجهة قدره الذي تسبب به حسب عقيدتهم.

ولكل واحد من هذه الأمور جذور عقائدية في العراق القديم. كما يذكر فاضل عبد الواحد علي :

((كان الاعتقاد السائد لدى سكان بلاد وادي الرافدين أنه على الرغم من أن قرارات الآلهة تعتبر مسألة حتمية، فإن الإنسان لم يُترك دون دلائل تمكنه من التعرف على المشيئة الإلهية. كما اعتقدوا أيضاً أن نوايا الآلهة تنعكس بشكل وقائع أو أحداث سواء كانت جسيمة أم بسيطة. ولهذا فإنهم ربطوا بين أية ظاهرة أو حادثة كونية أو طبيعية وبين ما يقع بعدها مباشرة على الصعيد الاجتماعي أو الفردي)).^(١)

يقول مفسرو التوراة : ((استعملت القرعة في العهد القديم كطريقة

(١) حضارة العراق، نخبة من الباحثين العراقيين ١ : ٢٠٠ - ٢٠١.

لتعيين النصيب أو للبت في الأمور الهامة التي لم يشاءوا تحكيم الفرد فيها . كالكاهن أو النبي أو الشيخ أو القاضي بل تحكيم القرعة بما تدل عليه ظناً منهم أنها تعبر عن إرادة الله. وكانت القرعة إحدى الطرق لاستشارة الله التي كانت تستعمل عند العبرانيين والشعوب الأخرى القديمة. وكان من جملة الاستشارة الإلهية عند العبرانيين استعمال الأوريم والتيميم والأفود)).^(١)

((أوريم وتيميم : اسم عبري. ... اسم شيء به يعلن الكاهن في إسرائيل أو عظيم الكهنة... قول الرب. ونحن نجهل معنى اللفظ كما نجهل شكل الشيء (أو الغرض)... يدل أوريم على النور، وتوميم على الكمال. وُجدت أدوات القول الإلهي في صرة (الصدر) يحملها عظيم الكهنة في الأفود. ولكن يبدو في الأصل أنهم كانوا يحتفظون بها في الخزانة، في صندوق اعتبره الناسخ ((تابوت الله))، وهذا الصندوق يشبه الأفود. هي حجارة صغيرة أو قضبان صغيرة من ألوان مختلفة أو مطبوعة بعلامات متنوعة... واحد يقول نعم. وآخر يقول لا. مهما يكن من أمر، كان السؤال يُطرح بحيث يكون الجواب نعم ولا. وقد يحصل أن لا يعطي ((القول)) جواباً لأن الحجرين يخرجان معاً من الخزانة. وما يثبت هذه الفرضية هو ١ صم ١٤ : ٤١ - ٤٢، الذي دلَّ على أن الأوريم والتوميم يدلان على طريقة إلقاء القرعة. إذاً كان قولاً يدل على

(١) قاموس الكتاب المقدس ٧٢٦.

القرعة، بواسطته يسأل بنو إسرائيل الرب، على مثال ما كان يفعل البابليون وشعوب أخرى تحاول أن تنال من آلهتها قولاً إلهياً. فيلجأون إلى القرعة ((قضبان صغيرة أو أسهم)))^(١).

أما الأفود فهو: ((قطعة من قماش تظهر في ثلاث حالات. هي المنطقة. هي رباط من قماش. هي الراية. أفود الكتان هو ثوب عبادي يتحزمون به، فيغطي الجسم بعض الشيء.... والأفود رباط من قماش يجعله عظيم الكهنة على القميص والجبّة. قماش منسوج بخيوط الذهب والكتان والصوف المتعدد الألوان... أما الجواب فيستخلص من تحركات الراية التي يمسكها الكاهن وتحركها الريح أو نسيم خفيف))^(٢).

((وكانت الشريعة تتساهل في استعمال هذه الطرق الثلاث. وكانت هناك طرق أخرى تعد غير شرعية بل محرمة مثل الاستشارة بالعصا أو السهام، والعرب كانوا يستعملون أزالام الميسر للتقسيم بوحى القرعة، والأزالام سهام بلا نصل، توضع في جراب فتجال فيه ويسحب منها سهم على اسم شخص كالإناصيب في أيامنا.... ومما جاء بأكثر وضوح عن الوحي بالقرعة قوله في (أم ١٦ : ٣٣) ((القرعة تلقى في الحضن ومن الرب كل حكمها)). أما الغايات التي تستعمل القرعة من أجلها فهي كما يلي :

(١) الفغالي، المحيط الجامع ١٩٠.

(٢) الفغالي، المصدر السابق ١٢٥.

١ - معرفة الجاني أو المذنب....

٢ - التعيين لوظيفة أو منصب كيوم تعيين أول ملك لبني إسرائيل....
وقسموا بالقرعة غنائم الحرب وأمتعة المحكوم عليهم بالسجن أو الموت (وكانت القرعة تلقى يوم التكفير على تيس الرب وتيس عزازيل)..... وفي تقاليد المشنا أن الأداة التي يلقونها قرعة كانت مصنوعة من خشب صلب ثم صنعت من ذهب، وكانت توضع في وعاء خاص تخض به وتلقى أو تسحب من، لمعرفة أي التيسين للرب)).^(١)

وكان ضرب القداح من الأساليب التي عمل بها العراقيون قديماً :
(وهي سهام صغيرة محززة، مثل الأرزلام عند عرب الجاهلية، وكان البابليون يستعملونها لاستطلاع رأي الآلهة في مناسبات أو قضايا معينة)).^(٢)

الخلاصة : أن القرعة يتم اللجوء إليها عند الحيرة في تحديد طرف أو ترجيح طرف على آخر، أو معرفة المتهم عند عدم حضور أدلة أو شهود أو أي حل عقلائي لجناية أو جريمة أو لترجيح طرف على آخر، ولكن ما ارتكبه يونس ليس من نوع التهم والجرائم التي يتاح لأي قانون أرضي أن يحكم بها، بالتالي لم يكن دور القرعة هنا سوى

(١) قاموس الكتاب المقدس ٧٢٦ - ٧٢٧.

(٢) فاضل عبد الواحد، مصدر سابق ١ : ١٩٨.

محاولة التعرف على مسبب المشكلة، أما الحل وهو الإلقاء في المياه فلا بد أن نبحث عن مصدر عقائدي أو قانوني أتاح لرفاق يونس أن يلجؤوا إليه، وهو ما لم يسعفنا به علماء ومفسرو التوراة.

ولم يجد المفسرون الإسلاميون كذلك إجابة لهذا التساؤل كما فعل الشيخ الطبرسي: ((واختلف في سبب ذلك فقليل: إنهم أشرفوا على الغرق، فرأوا أنهم إن طرحوا واحداً منهم في البحر لم يغرق الباقون. وقيل: إن السفينة احتبست فقال الملاحون: إن ههنا عبداً آبقاً، فإن من عادة السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري! فلذلك اقترعوا، فوقعت القرعة على يونس ثلاث مرات، فعلموا أنه المطلوب فألقى نفسه في البحر. وقيل: إنه لما وقعت القرعة عليه ألقوه في البحر)).^(١) وكل هذه الآراء التي ذكرها الشيخ الطبرسي جزافية.

ينبغي أن يكون الجواب واضحاً لنا من خلال الاطلاع على عقائد العراق القديمة وقوانينهم. ذكر الأستاذ د. نائل حنون في موسوعته القيمة (شريعة حمورابي):

((يرد ذكر النهر في شريعة حمورابي باعتباره الموضوع الذي يحتكم إليه لإثبات التهم أو البراءة منها. وحين يُذكر في مواد الشريعة يكون مسبوqاً بالعلامة الدالة على الألوهية (أو التقديس). ولقد أصبحت عملية الاحتكام الى النهر ممارسة في بلاد الرافدين من العصر البابلي القديم

(١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨: ٣٣٢.

فصاعداً. وكانت الحاجة إليها تبرز في حالة وجود خلاف قضائي لا يُحل بالوسائل العقلية، مثل حالة تضارب الشهادات والأقوال من قبل أطراف القضية. وهكذا يكون القرار للنهر المؤله (المقدس) أو عن طريق ابنه شازي (Šazi) أو عن طريق الإله أيا. وكان على الشخص الذي يخضع لاختبار النهر أن يخوض فيه، في موضع معين، فإذا خرج سالمًا يعتبر بريئاً وإذا غرق يثبت الذنب عليه. ونستطيع الافتراض، في ضوء التعبيرات اللغوية والأفعال المستعملة في مواد شريعة حمورابي، بأن الموضع الذي يجب أن يصل إليه الخاضع لاختبار النهر يكون حيث يغمر الماء قمة رأسه. وبهذه الحالة يستطيع إنقاذ نفسه إذا كان واثقاً من براءته حتى وإن كان يجهل السباحة، أو أن يغرق إذا كان مرتبكاً من شعوره بالذنب حتى وإن كان يستطيع السباحة. وكان يطلق على اختبار النهر اسم خُرْشان (huršan) في اللغة البابلية و(إد-لو - روكو) في اللغة السومرية. وعلى الرغم من أن شريعة حمورابي لا تذكر اسم نهر محدد لإجراء الاختبار فإن نصوصاً أخرى كانت تحدد الأنهار التي تُقصد لإجراء الاختبار. ومن تلك الأنهار: دابان وترناة (نهر ديبالي حالياً) والخابور^(١).

وما ذكره الأستاذ نائل حنون لا يعني أنه لم يكن هناك مواضع أخرى لإجراء هذا الاختبار ولكنها لم تذكر لوضوحها عندهم ذلك الوقت، إذ

(١) شريعة حمورابي ٢: ٢٥٤.

من المستبعد أن يجرى الاختبار في نهر الخابور مثلاً لحل مشكلة قضائية في أور أو الوركاء أو بابل، والأرجح أن النهر المحترم إليه هو القريب من القاضي أو سكنى المتخاصمين.

جاء في شريعة حمورابي ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م. المادة الثانية : ((إذا ألقى رجل على رجل تهمة (ممارسة) السحر، ولكنها لم يثبتها، فعلى الذي اتُّهم بالسحر أن يذهب الى النهر، وعليه أن يرمي نفسه في النهر، فإذا غلبه النهر، فعلى من اتهمه أن يستولي على بيته. وإذا اثبت النهر أن هذا الرجل بريء وخرج منه سالماً، فإن الذي اتهمه بالسحر يعدم. أما الذي خرج سالماً من النهر، فعليه أن يستولي على بيت متهمه)).^(١)

وجاء في المادة ١٤٣ : ((إذا كانت (إمرأة) غير محترسة وتخرج (كثيراً) وتخرّب بيتها وتحط من شأن زوجها، عليهم أن يلقوا تلك المرأة في الماء)).^(٢)

وجاء في قوانين العهد الاشوري الوسيط ١٣٦٥ - ٩١٠ ق.م. المادة ١٧ : ((إذا قال رجل لرجل (آخر) إن زوجتك زانية، ولم يكن لديه شهود، فعليهما أن يذهبا إلى النهر (للحكم الإلهي)).^(٣)

وجاء في المادة ٢٢ : ((إذا اتهمت امرأة رجلاً بأنه اغتصبها فإنه يتم

(١) رشيد، د. فوزي، الشرائع العراقية القديمة ١١٩.

(٢) المصدر السابق ١٤٣.

(٣) المصدر السابق ١٨٧.

الاحتكام الى النهر)). وجاء الاحتكام الى النهر في موارد أخرى من هذه القوانين الآشورية كما في المادة ٢٤.^(١)

وقد يقال أن مشكلة يونان لم تشملها إحدى التهم المشار إليها في المواد القانونية أعلاه، بالتالي لم يكن الاحتكام إلى النهر مورداً لها. وهذا ما يمكن أن نجيبه بأن الشرائع القديمة لم تصل إلينا كاملة، كما أن النهر كان مقدساً عند العراقيين القدماء بصرف النظر عن قصة الاحتكام، بالتالي نتوقع أن يقوم من تقع له مشكلة في البحر أو النهر بمحاولة تقديم قربان أو دعاء أو الاحتكام إليه.

ونلاحظ في نص سفر يونان قوله أن البحارة اقترحوا، وهو معنى من معاني الاحتكام إلى حل مشكلة لا يمكن حلها عقلياً كما أشار د. نائل حنون. ومن المتعارف في الشرائع القديمة اللجوء إلى حل القرعة عندما تتعسر الحلول المتاحة. ومن الملاحظ أننا لم نحدد إلى الآن تاريخ الحدث المرتبط بيونان (يونس) بالتالي لا نستطيع أن نجزم بطبيعة الشرائع أو القوانين المتعارفة عندهم، كما أن تحديد القرعة واللجوء لقرار النهر جاء باجتماع من البحارة الذين لا نعرف ديانتهم بالتالي نجهل عقائدهم، ولكن المؤكد هنا أن النهر كان يعتبر حلاً لمشكلة أو مشاكل معينة في حدود العراق القديم.

(١) المصدر السابق ١٨٨ و ١٩٠.

الحوت :

بداية لم يذكر الحوت في سفر يونان إطلاقاً، لا لفظاً ولا معنى، وإنما قام المترجمون في التوراة العربية بالتلاعب بالترجمة فترجموا كلمة (سمكة) و (شءول) أو (شيول Sheol) إلى كلمة (الحوت). كما بيّن كمال الصليبي :

((السفر هذا ينسب إلى يونان نصاً لصلاة أطلقها هذا النبي إلى إلهه يهوه ((من بطن الحوت))، هكذا في الترجمة العربية، وفي الأصل العبري : م - بطن شيء)).^(١)

ولا توجد أي صلة بين اللفظين أو المعنيين، فكلمة (الحوت العربية) التي تُفسَّر عادة بـ(الحيوان البحري الثديي المعروف) ليس لها مرادف مستقل كما سيأتي، كما أن كلمة (دَج) (دَك) أي (سمكة) تطلق على كل الأنواع البحرية الشبيهة بالسمك ومنها الحوت أو القرش وغير ذلك، ولكن لم تذكر التوراة ولم تشر بأي شكل من الأشكال إلى حوت أو قرش. وقد تبرع التوراتيون جزافاً ففسروا كلمة (سمكة) التي وردت في سفر يونان على أنها (الحوت). وسنجد أن اللغويين العرب ومفسي القرآن قد فسروا كلمة (حوت) بأنه الحيوان البحري جزافاً أيضاً.

أما الكلمة التي وردت في التوراة (شءول أو شيول)، فمعناها (الهاوية،

(١) الصليبي، خفايا التوراة ٢٨٣.

في الأعماق)، كما ذكر مفسرو التوراة :
(«يشبه شيول التوراة شهباً بعيداً (أرالو) كما في العالم الأشوري والبابلي.. و(ارالوا) عند البابليين إله مثنوى الأموات، وهو نرغال ... وكذا نقول عن (هاديس) في العالم اليوناني، ترد لفظة (شيول) قرابة ألف مرة. وهي تدل على الموضع الذي يطلب الموتى.. (الموضع العميق) (ش ع ل) في العبرية. و(الأرض الخربة) (ش أ ه) حيث لا حياة. وهكذا يبقى أصل الكلمة غامضاً».)^(١)

و : ((إن الإنسان يموت وبينما يوضع جسمه في القبر تنزل روحه المنفصلة عنه إلى ((البلد الذي لا عودة منه)) إلى ((الشيول)) أي الهاديس، وهو ذلك المكان المليء بالتراب، ذلك المكان المظلم الذي ترفرف فيه الأشباح مثل الطيور في وجود خامل وخال من السرور...))^(٢).

ولنقرأ أولاً النص كما جاء في الترجمة الحرفية للتوراة، وليس الترجمة المتعارفة، ونستعين هنا بالعمل القيم (العهد القديم العبري، ترجمة بين السطور) للأبوين بولس الفغالي وأنطوان عوكر، نقرأ أولاً الترجمة الحرفية :

(١) الفغالي، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم ١١٣١ - ١١٣٢. مختصراً.

(٢) ديليتش، بابل والكتاب المقدس ٤٤.

((وَأَعَدَّ يَهُوهُ سَمَكَةً كَبِيرَةً لِّابْتِلَاعِ يُونَانَ، فَكَانَ يُونَانٌ فِي أَمْعَاءِ السَّمَكَةِ ثَلَاثَةَ نَهْرٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، فَصَلَّى يُونَانٌ إِلَى يَهُوهُ إِلَهِهِ مِنْ أَمْعَاءِ السَّمَكَةِ، وَقَالَ : نَادَيْتُ مِنَ الضَّرَرِ لِي إِلَى يَهُوهُ فَأَجَابَنِي، مِنْ بَطْنِ الشَّيُولِ اسْتَعْنْتُ، سَمِعْتَ صَوْتِي وَطَرَحْتَنِي عُمُقًا فِي قَلْبِ بَحَارٍ وَنَهْرٍ يَحُوطُنِي، كُلُّ أَمْوَاجِكَ وَلَجَجَكَ عَلَيَّ عَبَّرْتُ، وَأَنَا قُلْتُ طُرِدْتُ مِنْ قِبَالَةِ عَيْنِكَ، لَكِنْ أَعُوذُ لِلنَّظَرِ إِلَى هَيْكَلِ قَدْسِكَ، اكِتَفَيْتَنِي مِائَةً حَتَّى نَفْسِي، عَمَرُ يَحُوطُنِي، حَلَفَاءُ مَحْبُوسٌ لِرَأْسِي، إِلَى أَسَافِلِ جِبَالٍ نَزَلْتُ، الْأَرْضُ عَلَيَّ مَغَالِيْقُهَا لِلْأَبَدِ، وَأَصْعَدْتُ مِنَ الْهُوَّةِ حَيَاتِي يَا يَهُوهُ إِلَهِي، بِإِعْيَاءِ عَلَيَّ نَفْسِي يَهُوهُ ذَكَرْتُ، فَأَتَتْ إِلَيْكَ صَلَاتِي إِلَى هَيْكَلِ قَدْسِكَ، حَافِظُونَ أَبَاطِيلَ كَذِبٍ لَطَفَهُمْ يَتْرَكُونَ، وَأَنَا بِصَوْتِ شُكْرٍ أَذْبَحُ لَكَ، مَا نَذَرْتُ أَوْفِي خِلَاصٍ لِيَهُوهُ، وَقَالَ يَهُوهُ لِلْسَّمَكَةِ فَقَذَفَتْ يُونَانَ إِلَى الْيَابِسَةِ)).^(١)

ولنفس المؤلفين جاء في الترجمة المتواصلة لنفس النص :

((أما الرب فأعدَّ حوتاً عظيماً لابتلاع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال : "إليك يا رب صرختُ فاستجبت لي في ضيقي، من جوف الموت استغيثُ فسمعتَ يا رب صوتي، طرحتني في الأعماق، في قلب هذه البحار، المياه الغزيرة تحيط بي، تياراتك وأمواجك جميعاً تعبرُ يا ربُّ عليَّ، طُرِدْتُ مِنْ أَمَامِ عَيْنِكَ فَكَيْفَ أَرَى بَعْدُ هَيْكَلَكَ

(١) الفغالي وعوكر، العهد القديم العبري، ترجمة بين السطور ٩٣٢.

المقدس، تكتنفني المياه إلى الأنف والغمر يحيط بي، وعشب البحر يغطي رأسي، نزلت إلى أسس الجبال، إلى أرض أبوابها انغلقت عليّ يا رب إلى الأبد، لكنك أيها الرب إلهي سترفع حياتي من الهاوية، وعندما تعود إليّ نفسي أتذكرك أيها الرب فتصل إليك صلاتي في هيكلك المقدس، يراعون آلهة السوء ويهملون رحمتك عليهم، وأنا بصوت الحمد أقرب إليك الذبائح وأوفي بما نذرته لك، فمك يا رب خلاصي". فأمر الرب الحوت فقفذ يونان إلى البر).^(١)

وبعد قراءة الترجمتين نلاحظ ما يلي :

. أن الترجمات ليست دقيقة في كل الموارد، وهو ما قد ينسب لتعسر ذلك، لأن الترجمة الحرفية تكون معقدة أو صعبة على القارئ العادي، وكما لاحظنا أعلاه فلم ترد لفظة (حوت) في النص، وإنما وردت كلمة (سمكة)، وهي هنا بمعنى مجازي رمزي، لوجود المناسبة مع المياه، فلا يصلح أن يكون الذي ابتلع يونس كائن بري، وأقرب تصور إلى ذهن العبراني ذلك الوقت هو السمك. ولأنه يسمى كل الأنواع المعروفة عنده (سمك).

كما يؤكد كونج **Konig** : ((أن هناك علاقة بين الإشارة عن الحوت والمدينة نينوى. ويشير إلى العلاقة بين الإلهة نينا **Nina** وعشتار

(١) الفغالي وعوكر، نفس المصدر السابق والصفحة.

Eshtar بسمكة من الداخل)).^(١)

. أن الحدث لم يقع في (بحر) بل في (نهر) لما قرأناه أعلاه، فقد جاء :
((تكتفني المياه إلى الأنف والغمرُ يحيط بي، وعشبُ البحر يغطي
رأسي))، وهذا يعني أنه لم يكن بعيداً عن الساحل، بالتالي لم يكن في
بحر لأن المياه بلغت أنفه، فالمياه لم تغمره سوى لحظات اعتلاء
الأمواج له، كما أن الحلفاء لا توجد في وسط البحر، وهي متكاثرة
على ضفاف الأنهار خاصة ما نراه في دجلة والفرات. كما يؤكد علماء
التوراة : ((الحلفاء نبات قليل الارتفاع ينمو بالقرب من مجاري المياه،
وفي المستنقعات، ومنه تُصنع الحصر والحبال)).^(٢)

. لاحظنا أن يونس بعد أن ابتلعه السمكة يتحدث عن بلوغ المياه لأنفه
وأن الأعشاب تغطي رأسه، فهو إذن بكل وضوح لم يكن في بطن
سمكة أو حوت. فلو كان في بطن الحوت فمن أين تأتي المياه التي
بلغت أنفه، أو الأعشاب التي غطت رأسه؟.

((وذهب فلهوزن إلى القول، بأن العدد الخامس "والتف عشب البحر
برأسي" يبطل الاعتقاد أن يونان كان في جوف الحوت، عندما كان
يردد هذه الصورة الوارد عنها في الاصحاح الثاني، لأن العشب لا يستقر

(١) صموئيل يوسف، المدخل الى العهد القديم ٣٧٥.

(٢) دائرة المعارف الكتابية ٣ : ١٥٠ - ١٥١.

في جوف الحوت)).^(١)

. ويحاول علماء التوراة جاهدين تفسير هذه المشاكل في السفر فلا يجدون غير تأويلات غير مجدية، كما فعل صموئيل يوسف قائلاً :
(أما عن التعبيرات الواردة بهذا الاصحاح أو بهذه الصلاة مثل "تياراتك ولججك" "أحاط بي غمر" "التف عشب البحر برأسي" "نزلتُ إلى أسافل الجبال" - مغاليق الأرض - والهاوية إنما هي عبارات مجازية، تعبر عن خلاص الله له من الموت في المياه. فلا تؤخذ حرفياً، وما أكثر هذه العبارات المجازية في العهد القديم...)).^(٢) واتفق تماماً مع د. صموئيل يوسف في كثرة العبارات المجازية في العهد القديم، ولكن ما الذي يجعل من اللفظ مجازاً أو حقيقة؟، ولماذا لا تكون السمكة أوضح مصاديق المجاز في هذا السفر؟، أليس وجود يونان في البحر حقيقة، إذن لا ضرورة لتفسير العشب والغمر بالمجاز، ولكن ابتلاع سمكة له مع وجود قرائن تدل على أن المعنى مجازي، لا يفسر إلا بكون لفظ سمكة هنا ورد مجازاً دون ريب. فلو كان يونان في بطن سمكة لقال (من بطن السمكة استغثتُ)، ولكنه قال كما في العدد أعلاه (من بطن الشبول استغثتُ).

وأما كلمة بحر الواردة في النص فهي تشمل البحر والنهر والأهوار،

(١) صموئيل يوسف، المدخل الى العهد القديم ٣٧٥.

(٢) صموئيل يوسف، المدخل الى العهد القديم ٣٧٦.

وهذا متعارف سواء في التوراة أو القرآن.
(بحر : وهي في العبرية "يم" (وهي نفس الكلمة العربية لفظاً ومعنى،
وتعني "الماء الكثير") وتطلق في العهد القديم على جميع مجتمعات
المياه من بحار وبحيرات وأنهار^(١)).
قرأنا قول يونس (من بطن الشبول استغثت) وعلمنا سابقاً معنى الشبول.
وهو معنى رمزي (روحي) وليس مادياً.

.مما يؤكد أن لا كائن مادي ابتلع يونس ما قرأناه ((تكتنفني المياه إلى
الأنف والغمر يحيط بي، وعشبُ البحر يغطي رأسي، نزلت إلى أسس
الجبال، إلى أرضٍ أبوابها انغلقت عليَّ يا ربُّ إلى الأبد)). فقله أنه نزل
إلى أسس الجبال لا يتفق مع كون المياه بلغت أنفه، كما أنه لو كان في
بطن حوت لما علم أنه بلغ أسس الجبال أو قاع الأرض، ثم اي معنى
لأسس الجبال وهو في البحر؟.

وعليه فإن الذي ابتلع يونان هو الهاوية أو الأعماق التي يمكن أن
نفسرها بأعماق الظلمة النفسية، التي استحقها يونان لمخالفته واتباعه
هو نفسة.

. هناك اتفاق على أن البحر المتوسط ليس فيه حيتان تستطيع ابتلاع
إنسان لأنها لا تعيش فيه، وهو ما يُقرُّ به علماء التوراة : ((والكلمة العبرية
"داج" وترجم في سائر المواضع "بسمكة"، فلم يكن الذي ابتلع يونان

(١) دائرة المعارف الكتابية ٢ : ٧٠.

”حوتاً“ بالمعنى العلمي المعروف إذ لا تعيش الحيتان في البحر المتوسط...)).^(١)
وسنأتي على تفاصيل أخرى أدناه.

أما كلمة الحوت التي وردت في القرآن فلم ترد بمعنى (الحوت : الحيوان الثديي البحري) في كل الموارد، وإنما وردت بعدة معاني ليس منها سمكة أو غيرها من الحيوانات البحرية.
ذكر ابن فارس : ((”حوت“ الحاء والواو والتاء أصل صحيح منقاس، وهو من الاضطراب والروغان، فالحوت العظيم من السمك وهو مضطرب أبداً غير مستقر. والعرب تقول حاوتني فلان إذا راوغني. وينشد هذا البيت :

ظلت تحاوتني رمداء داهية

يوم الثوية عن أهلي وعن مالي)).^(٢)

وذكر ابن منظور : ((حاوتك فلان إذا راوغك. والمحاوة : المراوغة. وهو يحاوتني أي يراوغني...)).^(٣)

وقال الشيخ حسن المصطفوي بعد أن ذكر معاني (الحوت) في المعاجم اللغوية : ((والتحقيق : أنَّ الأصل الواحد في هذه المادة : هو

(١) دائرة المعارف الكتابية ٣ : ١٨٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢ : ١١٤.

(٣) لسان العرب ٢ : ١٧٩.

الروغان، يقال: راغ إليه، إذا مال نحوه يريد منه شيئاً على سبيل الاحتيال. ولما كان السمك يتحرك ويجري ويميل في الماء يريد صيداً وغذاء ويحتال في تحصيل ذلك دائماً يرى منه هذا الميل والحركة والاحتيال، فسمي بالحوث.....^(١))).

ونفس الكلام يأتي لتفسير معاني الحوث الأخرى التي وردت في القرآن، كما في قصة موسى وفاته: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٣). فالحوث هنا بمعنى القارب أو السفينة التي أقلتتهما، وسمي القارب هنا بالحوث لاضطرابه كما هو واضح، وقد نسي فتى موسى أن يربط القارب وفيه غداءهما، وليس أنهما نسيا طعامهما الذي يفترضه المفسرون سمكة كانت ميتة فحييت بعد أن مسها ماء الحياة، ويدل على أنهما كانا في رحلة بحرية الآيات السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. (الكهف: ٦٠ - ٦٣).

فإن البحرين المشار إليهما في هذه الآية أحدهما نهر كبير والآخر بحر

(١) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن ٢: ٣٠٢.

كما نعرفه اليوم، فقد كان يطلق اسم (بحر) و(يم) على البحر كالبحر المتوسط والخليج، والنهر الكبير كدجلة والفرات، والمستنقعات الكبيرة كالأهوار في جنوب العراق، والبحيرات الواسعة والمنخفضات كبحر النجف السابق وبحيرة الحبانية وما إليها. ومن أوضح الأمثلة (اليم والبحر) الذي غرق فيه فرعون فهو عبارة عن مستنقعات (أهوار) كما تؤكد التوراة، حيث ذكرت أن هذا البحر أو اليم هو (يم سوف)، وكلمة (سوف) تعني (قصب الغاب).

ومع تأمل يسير يتضح لنا أن قوله (مجمع البحرين) هو كقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (الفرقان : ٢٤). وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (فاطر : ١٢).

فهنا نرى أن البحرين أحدهما عذب، وهو ما لا يمكن أن يكون البحر الذي نعرفه اليوم وإنما النهر الكبير أو الأهوار، كما أن سياق الآية يشير إلى مصب النهر في البحر وهو قوله (مجمع البحرين) أي موضع إلتقاء النهر بالبحر.

أما الصخرة التي وجدا فيها الرجل الذي قصد موسى لقاء فهي جزيرة وسط البحر، قريبة من مصب النهر في البحر أي (مجمع البحرين)،

وتؤكد آية لاحقة أنهما كانا في رحلة بحرية، وهو قوله تعالى :
﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف : ٧١). فمن خلال سياق الآيات يتضح أن موسى والعالم ركبا السفينة بعد اللقاء مباشرة، وهذا يعني بكل وضوح أن موسى وفاته منذ البداية كانا في رحلة بحرية، كما أن ترك الحوت عند البحر دلالة أخرى على أنهما كانا في رحلة بحرية، فما الذي يعلّنه عند ساحل البحر لولا ذلك؟. ومن المؤكد أن موسى وصل إلى الجزيرة بواسطة قارب أو سفينة، ومع ذلك فهو وصاحبه يستقلان سفينة أخرى، فما الذي حلَّ بسفينته أو قاربه الذي جاء به؟. ولا تسعفنا الآيات الواردة بأي جواب، إلا أن نفهم بارتياح أن قاربه أو سفينته ما هو إلا الحوت الذي اتخذ سبيله في البحر سرباً.

وقد صرحت بعض الروايات الإسلامية بأنه كان قاصداً لجزيرة معينة في رحلة بحرية :

((في كتاب كتبوه إلى الرضا (عليه السلام) يسألونه عن العالم الذي اتاه موسى ... فكتب في الجواب : أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر إما جالساً وإما متكئاً...)).^(١)

((فوجدته نائماً في جزيرة من جزائر البحر ملتفاً بكساء)).^(٢)

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ٨ : ٣١٦.

والتفت العيني : ((روى عبد بن حميد، عن أبي الغالية : أن موسى، عليه الصلاة والسلام، التقى بالخضر في جزيرة من جزائر البحر. انتهى. والتوصل إلى جزيرة في البحر لا يقع إلا بسلوك البحر)).^(١) وهذه الرواية تؤكد أن رحلة موسى اساسا كانت بحرية، بالتالي فهو وفاته كانا على متن قارب أو سفينة، وهو الحوت الذي فقده نتيجة الأمواج أو المد البحري.

ولتوثيق المعنى اللغوي الذي حققناه أعلاه للفظ (الحوت) نذكر لفظاً شائعاً آخر تمَّ حصره بمعنى واحد، وهو لفظ (ثعبان) إذ لا نعرف عنه إلا معنى واحد، إلا أننا لو راجعنا المعنى اللغوي لأصل وضعه لوجدنا أن استخدامه في الأفعى ليس أصيلاً وإنما لمناسبة معينة يمكن أن نجد لها مصاديق متعددة في معان أخرى :

ورد لفظ (ثعبان) مرة واحدة في القرآن الكريم ((فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين)) الأعراف ١٠٧. وهي تتحدث عن عصا موسى التي أُشير إليها في موارد أخرى مثل ((فألقاها فإذا هي حية تسعى)) طه ٢٠.

بداية ما قرأناه في الآيتين لا يدل على أن المعنى في اللفظين هو الأفعى، فالحية من الحياة لا غير، أي دبَّت في العصا الحياة بأي شكل من الأشكال. أما الثعبان فهو وصف يصدق على كل حركة معينة ومنها حركة الأفعى، وليس اسماً وصفاً خاصاً بالأفعى. كما يذكر اللغويون : قال الفراهيدي : ((ثعبتُ الماء أثعبه ثعباً، أي فجَّرتُه فانتعب، ومنه اشتق

(١) العيني، عمدة القاري ٢ : ٥٨.

المتعب وهو المرازب. واثعب الدم من الأنف)).^(١)
وقال الجوهري : ((الثعب، بالتحريك : مسيل الماء في الوادي، وجمعه ثعبان. والثعبان أيضاً ضربٌ من الحيات طوال، والجمع ثعابين. والثعبة ضرب من الوزغ.... قال الأصمعي : فوه يجري ثعابيب وسعابيب، وهو أن يجري منه ماء صاف فيه تمدد)).^(٢)

ومنها ألفاظ (نملة) و (هدهد) و (عفريت) غيرها مما تمَّ حصرها بمعنى وهي أساساً لم توضع لذلك المعنى.

ويجدر بنا أن نلقي نظرة فاحصة على الآيات أعلاه لتعرف على حقيقة الفهم السائد والتفسير الشائع لها :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. (الكهف : ٦٠ - ٦٣).

ونتوقف عن موضعين منها : ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ و﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، فكلا الموردين، حسب المشهور، يدل على أن (الحوت) هو سمكتهما التي كانا يعدانها للغداء.

ولكننا لو عدنا إلى التفاسير والمعاجم اللغوية لما كان الأمر بهذا

(١) الفراهيدي ٢ : ١١١.

(٢) الصحاح ١ : ٩٢. ٩٣.

الوضوح المُدَّعى. ونبدأ بالتعرف على معنى (سرباً وعجباً) حسبما وردتا في الآيتين.

((فاتخذ سبيله في البحر سرباً أي مذهباً، يقال : سرب يسرب سرباً، إذا مضى لوجهه في سفر غير بعيد ولا شاق وهي السربة، فإذا كانت شاقة، فهي (السبأة) بالهمزة)).^(١)

((والسرب : المسلك والمذهب، ومعناه في اللغة : المحفور في الأرض، لا نفاذ له، ويقال للذاهب في الأرض : سارب، قال الشاعر :
أنى سربتُ وكنْتُ غيرُ سروب

وتقرب الأحلام غير قريب)).^(٢)

وأيضاً : ((وتتخذ نفقاً في الأرض، أي : سرباً ومسكناً في جوف الأرض)).^(٣)

((سبيله في البحر سرباً، مسلکاً، قيل أمسك الله جري الماء من الحوت فصار كالكوّة لا يلتئم)).^(٤)

(("فاتخذ" الحوت، "سبيله" أي : طريقه، "في البحر سرباً" أي : مسلکاً يذهب فيه، صار الماء عليه مثل الطاق، وحصل من الماء في مثل

(١) الطوسي، التبيان ٧ : ٦٦.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٦ : ٣٦١.

(٣) الطبرسي، المصدر السابق ٤ : ٤٥.

(٤) عبد الله شبر، تفسير شبر ٢٩٥.

السرب)).^(١)

نلاحظ : أن السمكة لو قفزت في الماء فإنها لا تحدث مسلماً وإنما تغطس مباشرة داخل الماء لحظة التماس معه، وتحدث دوائر مركزها نقطة الغطس، ومما لا شك فيه أن الحوت لو كان سمكة في هذا الموضع فهو سمكة صغيرة قدر غداء اثنين، وهي ليست بالحجم الذي يحدث سرباً ملحوظاً، وإنما الذي يحدث مسلماً أثر الاندفاع في الماء هو القارب من دون ريب.

((عن الحسن : ثم انطلقا يمشيان على شاطئ البحر، حتى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر، فأويا إليها، وعنده عين ماء تسمى عين الحياة. فجلس يوشع بن نون، وتوضأ من تلك العين، فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء، فعاش ووثب في الماء، وجعل يضرب بذنبه الماء، فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلا صار الماء جامداً، فذلك معنى قوله : ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾)).^(٢)

((حدثني أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إن موسى (صلى الله عليه وسلم) قام في بني إسرائيل خطيباً فقالوا له : من أعلم الناس؟ قال : أنا. فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : إن لي عبداً أعلم منك، قال : رب فأرنيه. قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدته

(١) الطبرسي، تفسير جوامع الجامع ٢ : ٤٢٥.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان ٦ : ٣٦٣.

فهو ثم، قال : فأخذ حوتاً فجعله في مكمل، وجعل هو وصاحبه يمشيان على الساحل حتى أتيا الصخرة رقد موسى (عليه السلام) واضطرب الحوت في المكمل فوقع في البحر فحبس الله عليه جرية الماء، فاضطرب الماء، فاستيقظ موسى فقال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يصب النصب حتى جاوز الذي أمره الله تبارك وتعالى به، قال فقال : أرأيت إذ أوينا الصخرة فاني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان، فارتدا على آثارهما قصصاً، فجعلنا يقصان آثارهما. (واتخذ سبيله في البحر سرباً) قال أمسك عنه جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فكان للحوت سرباً وكان لموسى (عليه السلام) عجباً حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى عليه ثوب فسلم موسى (...)).^(١)

وهذه الرواية وسابقتها كباقي الروايات مختلفة مضطربة، فقد جاء فيها أن موسى نام (رقد) عندما اضطرب الحوت وقفز في الماء، وعندما استيقظ طلب من فتاه أن يأتيه بالغداء، بينما الآيات واضحة الدلالة في أنهما نسيا الحوت ومضيا في طريقهما، وهو قوله ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، أي إلى موضع فقدان الحوت. ومعظم الروايات في هذا الباب إن لم تكن جميعها على هذه الشاكلة.

(١) مسند أحمد ٥ : ١١٧ - ١١٨. والطبرسي، مجمع البيان ٦ : ٣٦٤. وصحيح البخاري ٥ : ٢٣٠. وصحيح مسلم ٧ : ١٠٣. والترمذي ٤ : ٣٧١. والطبري، جامع البيان ١٥ : ٣٤٥. وغيرها من مصادر الحديث والتفسير.

كما أن المفارقة في هذه الرواية وغيرها أن موسى كان يعلم مسبقاً أن السمكة هي العلامة التي متى ما فقدها فقد بلغ قصده، مع ذلك فهو يطلب من فتاه أن يحضرها ليتغديا بها، ومن المفترض أنه وفتاه سيحتفظان بها إلى حين فقدها، ولو أنهما أكلاها فكيف سيعرف موسى أنه بلغ غاية رحلته؟. ومن ناحية أخرى إن موسى يعرف حسب الرواية أن السمكة ستحيى بعد ميته مسبقاً فلماذا حصل العجب، مع أن موسى سبق أن رأى معاجز أهم بكثير من إحياء سمكة كالآيات التسع التي حلّت بمصر وافتراق البحر وغرق فرعون فيه؟.

وذكر السيد الطباطبائي : ((وقوله : (نسيا حوتهما) الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتاً مملوحاً أو مشوياً حملاًه ليرتزقا به في المسير، ولم يكن حياً وإنما حي هناك، واتخذ سبيله في البحر، وراه الفتى وهو حي يغوص في البحر ونسى أن يذكر ذلك لموسى، ونسي موسى أن يسأله عنه أين هو؟، وعلى هذا فمعنى (نسيا حوتهما) بنسبة النسيان إليهما معاً نسيا حال حوتهما، فموسى نسي كونه في المكنل فلم يتفقده، والفتى نسيه إذ لم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره. هذا ما ذكروه. وأعلم أن الآيات غير صريحة في حياة الحوت بعد ما كان ميتاً بل ظاهر قوله : (نسيا حوتهما) وكذا قوله : (نسيت الحوت) أن يكونا وضعاه في مكان من الصخرة مشرف على البحر فيسقط في البحر، أو يأخذه البحر بمد ونحوه فيغيب فيه ويغور في أعماقه بنحو عجيب، كالدخول في السرب، ويؤيده ما في بعض الروايات أن العلامة كانت هي افتقاد

الحوت لا حياته. والله أعلم. وقوله : (فاتخذ سبيله في البحر سرباً)، السرب : المسلك والمذهب، والسرب والنفق : الطريق المحفور في الأرض لا نفاذ فيه، كأنه شبه السبيل الذي اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذي يسلكه السالك فيغيب فيه))^(١).

لأَحْظَ العلامة الطباطبائي أن الآيات لا تدل على ما يذكره الاخباريون من كون الحوت كان ميتاً ثم حيّ، وهي ملاحظة صحيحة، فلا إشارة إلى كونه حياً أو ميتاً أو كونه أساساً سمكة. إلا أن ما ذكره آخراً عن السرب ليس دقيقاً، فحتى مع فرضه أن السمكة كانت ميتة أساساً وجذبها البحر بمد ونحوه فإن ذلك لا يعد سرباً أو مسلكاً أو نفقاً، ولا شك أن الطباطبائي كان ملتفتاً لذلك فأراد التخلص من الإشكال فقال : (كأنه شبه السبيل الذي اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذي يسلكه السالك فيغيب فيه). أي أن (سرباً) ذكرت على نحو التشبيه وليس على نحو الحقيقة، ولكن لم يخبرنا السيد الطباطبائي ما هو العجب في ذلك؟.

((وسارب بالنهار، السرب بفتحيتين، والسروب الذهاب في حدود، وسيلان الدمع، والذهاب في مطلق الطريق، يقال سرب سرباً وسروباً نحو مرّ مرّاً ومروراً كذا في المفردات فالسارب هو الذهاب في الطريق

(١) الطباطبائي، الميزان ١٣ : ٣٤٠.

المعلن بنفسه)).^(١)

((والسيل المسلك، والسرب المسلك في جوف الأرض، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماء بعده بل بقي كالطاق، وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقاله جمهور المفسرين، أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، وقال قتادة: صار موضع سلوكه حجراً صلباً. وقال ابن زيد: إنما اتخذ (سيله سرباً) في البر حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة. قال القاضي أبو محمد: وهؤلاء يتأولون (سرباً) بمعنى تصرفاً وجولاناً من قولهم (فَحَلَ سارب) أي مهمل يرعى حيث شاء، ومنه قوله تعالى: (وسارب بالنهار) أي متصرف، وقالت فرقة: اتخذ (سرباً) في التراب من المكث إلى البحر وصادف في طريقه حجراً فتقبه، وظاهر الأمر أن السرب إنما كان في الماء)).^(٢)

نلاحظ مدى التشويش عند المفسر، فضلاً عن محاولته التخلص من المأزق عبر ذكر روايات مختلفة من قبل بعض الرواة. ولكنه يسلم كالعادة في أن (سرباً) تم تأويلها لكي تتفق مع حركة السمكة المدعاة. ((سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار"، وفيه مسائل: ... المسألة الثانية: في المستخفي والسارب قولان: القول الأول: يقال: أخفيت الشيء أخفيه إخفاء

(١) الطباطبائي، الميزان ١١: ٣٠٨.

(٢) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣: ٥٢٨.

فخفي، واستخفى فلان من فلان، أي : توارى واستتر. وقوله : (وسارب بالنها). قال الفراء والزجاج : ظاهر بالنها في سربه، أي طريقه. يقال : خلا له سربه، أي طريقه. وقال الأزهري : تقول العرب : سربت الإبل تسرب سرباً، أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت، فإذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الإنسان مستخفياً في الظلمات أو كان ظاهراً في الطرقات، فعلم الله تعالى محيط بالكل. قال ابن عباس رضي الله عنهما : سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة. وقال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي، ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي. والقول الثاني : نقله الواحدي عن الأخفش وقطرب أنه قال : المستخفي الظاهر والسارب المتواري، ومنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته أي أظهرته. واختفيت الشيء استخرجته، ويسمى النباش المستخفي، والسارب المتواري. ومنه يقال : للدخل سرباً، والسرب الوحش إذا دخل في السرب أي في كناسة. قال الواحدي : وهذا الوجه صحيح في اللغة، إلا أن الاختيار هو الوجه الأول لإطباق أكثر المفسرين عليه، وأيضاً فالليل يدل على الاستتار، والنها على الظهور والانتشار^(١).

((سرب، السين والراء والباء أصل مطرد، وهو يدل على الاتساع والذهاب في الأرض، من ذلك السرب والسربة، وهي القطيع من الظباء والشاء، لأنه ينسرب في الأرض راعياً، ثم حمل عليه السرب من النساء،

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ١٩ : ١٧ - ١٨.

قالوا : والسرب بفتح السين أصله في الإبل، ومنه تقول العرب للمطلقة : اذهبي فلا أندّه سربك، أي لا أردُّ إبلك لتذهب حيث شئت، فالسرب في هذا الموضع المال الراعي. وقال أبو زيد : يقال : خلّ سربه، أي طريقه يذهب حيث شاء، وقالوا : يقال أيضاً : سرب بكسر السين، وينشد بيت ذي الرمة : خلى لها سرب أولاهـا. وقال : يعني الطريق، ويقال : انسرب الوحشي في سربه، ومن هذا الباب السرب والسرب وهو الماء السائل من المزادة، وقد سرب سرباً، قال ذو الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كلى مفرية سرب

بفتح الراء وكسرهما، ويقال : سربت القربة، إذا جعلت فيها ماء حتى ينسد الخرز، والسرب الخرز، لأن الماء ينسرب منه أي يخرج، والسارب الذاهب في الأرض وقد سرب سروباً، قال الله جل ثناؤه : (وسارب بالنهار) قال الشاعر :

أنى سريت وكنتُ غير سروب

وتقرب الأحلام غير قريب.

والمسربة الشعر النابت وسط الصدر، وإنما سمي بذلك لأنه كأنه سائل على الصدر جار فيه، فأما قولهم آمن في سربه فهو بالكسر، قالوا معناه : آمن في نفسه. وهذا صحيح، ولكن في الكلام إضماراً، كأنه يقول : أمانة نفسه حيث سرب، أي سعى. وكذلك هو واسع السرب أي الصدر، وهذا أيضاً بالكسر، قالوا : ويراد به أنه بطيء الغضب، وهذا يرجع إلى الأصل الذي ذكرناه، يقولون : إن الغضب لا يأخذ فيقلق وينسد عليه

المذاهب)).^(١)

((الفراء في قوله تعالى : ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ قال : كان الحُوتُ مالحاً، فلما حَيِيََ بالماءِ الذي أصابه من العَيْنِ فوقَ في البحر، جَمَدَ مَذْهَبُهُ في البحر، فكان كالسَّرَبِ، وقال أبو إسحق : كانت سمكةً مملوحةً، وكانت آيةً لموسى في الموضع الذي يَلْقَى الخَضِرَ، ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أَحيا الله السمكة حتى سَرَبَتْ في البحر. قال : وسَرَبًا منصوبٌ على جهتين : على المفعول، كقولك اتخذتُ طريقِي في السَّرَبِ، واتخذتُ طريقِي مكان كذا وكذا، فيكون مفعولاً ثانياً، كقولك اتخذتُ زيداً وكيلاً ؛ قال ويجوز أن يكونَ سَرَبًا مصدرًا يَدُلُّ عليه اتخذ سبيلَه في البحر، فيكون المعنى : نَسِيََا حُوتَهُمَا، فجَعَلَ الحوتُ طريقَه في البحر ؛ ثم يَبَيِّنُ كيف ذلك، فكأنه قال : سَرَبَ الحوتُ سَرَبًا ؛ وقال الْمُعْتَرِضُ الظَّفَرِيُّ في السَّرَبِ، وجعله طريقاً :

تَرَكْنَا الضُّبْعَ سَارِبَةً إِلَيْهِمْ ،

تَنُوبُ اللَّحْمَ فِي سَرَبِ الْمَخِيمِ

قيل : تَنُوبُهُ تأتيه . والسَّرَبُ : الطريقُ . والمخيم : اسم وادٍ ؛ وعلى هذا معنى الآية : فاتخذ سبيلَه في البحر سَرَبًا، أي سبيل الحوت طريقاً لنفسيه، لا يَحِيدُ عنه . المعنى : اتخذ الحوتُ سَبِيلَهُ الذي سَلَكَه طريقاً طَرَقَه . قال أبو حاتم : اتخذ طريقَه في البحر سَرَبًا، قال : أَظُنُّهُ يريدُ ذهاباً كَسَرَبَ سَرَبًا، كقولك يَذْهَبُ ذهاباً. ابن الأثير : وفي حديث الخضر وموسى،

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٣ : ١٥٥ - ١٥٦.

عليهما السلام : فكان للحوت سرباً ؛ السَّرب، بالتحريك : المَسْلَك في حُفْيَةٍ^(١).

وقد أسهب الشيخ حسن المصطفوي في استقصاء معاني (سرب) فكانت الخلاصة :

((والتحقيق : أنَّ الأصل الواحد في هذه المادَّة (أي سرب) : هو الظهور مع تحرُّك بعد الخفاء، فهذا المعنى في مقابل السكون مع الخفاء . ويختلف هذا المفهوم من جهة الخصوصيات باختلاف الموارد : فيقال فيمن يرى منه التبرُّز والحركة : إنَّه سرب سروباً. وفي قطعة مال ظهرت للرعي وذهبت في المرعى وإليه : إنَّها سربت سرباً. وفي مجرى الغائط ومخرجه إنَّه مسربة. وفي الماء السائل أو المترشح من المزادة إنَّه سَرب وسرب. وفي قطعة من مفازة قفر يتراءى في أثر انعكاس النور سراباً كأنَّه يتموِّج فيه الماء، فيتظاهر بجريان الماء وتموِّجه، وفي الشعور النابتة في الصدر إلى العانة، فهي الظاهرة المتمرِّزة كما في قطعة المال . وبهذه المناسبة تطلق المادَّة على طريق هو مجرى الظهور والحركة، لا مطلق الطريق، وعلى نفس واقع في هذا الجريان.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، أي من يطلب التخفي بالليل ومن يسرب ويظهر بالنهار، فقد ذكر السارب في مقابل المستخفي ... ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ

(١) ابن منظور، لسان العرب ٣ : ٢٧٠. الزبيدي، تاج العروس ٢ : ٦٩ - ٧٠.

بَيْنَهُمَا نَسِيًا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. أَي فَاتَّخَذَ الْحَوْتَ سَبِيلَهُ الَّذِي جَعَلَ لَهُ بِالطَّبْعِ وَهُوَ الْجَرِيانُ فِي الْمَاءِ، وَهُوَ فِي حَالَةِ السَّرْبِ أَي التَّظَاهَرِ مِنَ الْمَحْدُودِيَّةِ وَكَوْنِهِ مَمْنُوعًا مِنَ الْجَرِيانِ .

وَلَا يَبْعَدُ الْقَوْلُ بَأَنَّ الْحَوْتَ كَانَ حَيًّا وَمَحْفُوظًا فِي مَاءٍ لَثَلَا يَتَسَنَّهَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ، وَقَدْ وَضَعُوهُ هُنَاكَ قَرِيبًا مِنَ الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ الْحَوْتَ بِمَعْنَى الرُّوْغَانَ وَالتَّحَرُّكَ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي سَمَكٍ يَكُونُ حَيًّا وَمَتَحَرِّكًا - رَاجِعَ الْحَوْتَ. أَوْ أَنَّهُمَا أَخَذَا الْحَوْتَ قَبِيلَ هَذَا الْوَقْتِ، وَكَانَ حَيًّا فِي الْبَاطِنِ، وَإِذَا رَأَى الْمَاءَ وَأَحْسَنَ بِهِ : فَرَاغَ إِلَيْهِ وَنَجَا)).^(١)

((وَالسَّرْبُ أَيْضًا: الطَّرِيقُ، عَنْ أَبِي زَيْدٍ . يُقَالُ : خَلَّ لَهُ سَرَبُهُ. قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

خَلَى لَهَا سَرْبٌ أَوَّلَاهَا وَهَيَّجَهَا

مِنْ خَلْفِهَا لِأَحَقِّ الصَّقْلَيْنِ هَمْهِيمٍ)).^(٢)

أَمَّا (الْعَجَبُ) فِي قَوْلِهِ ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، فَقَدْ قِيلَ : أَلَيْسَ الْعَجَبُ هُنَا يَدُلُّ عَلَى حَصُولِ مُعْجَزٍ يَدُلُّ عَلَى الْعَجَبِ؟.

وَجَوَابُهُ :

أَوَّلًا: أَنَّ الْمُرَادَ لَوْ كَانَ لِأَحْيَاءِ سَمَكَةٍ بَعْدَ مَوْتِهَا لَمَا تَوَقَّعْنَا أَنْ يَنْسِيَ

(١) حَسَنُ الْمَصْطُفَوِيِّ، التَّحْقِيقُ فِي كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ ٥ : ٩٠ - ٩٢.

(٢) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ ١ : ١٤٦.

فتى موسى مثل هذا الحدث، إذ كان وموسى متسايرين أحدهما جنب الآخر، ولكان كلاهما يلاحظان ذلك. كما أن مثل هذا الحادث المهم لم يكن القرآن ليغفل ذكره بوضوح، وأما الحديث عن عين الحياة فلا أصل له ولا إشارة في القرآن إليه، فإن الحادث كما هو واضح وقع على ساحل البحر.

ثانياً: إن مورد العجب هنا أن القارب عادة ما تدفعه الأمواج باتجاه الساحل وليس العكس، خاصة أن القارب عادة ما يسحب على الرمال ولا يترك في الماء، فمورد العجب لفتى موسى هو جذب الأمواج للقارب باتجاه البحر. كما أن النسيان كان من كليهما وليس من الفتى فقط: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

((وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، أي اتخذاً عجباً، فعجباً: وصف قام مقام موصوفه على المفعولية المطلقة)).^(١)

وهذا يدفع القول بأن العجب من حياة السمكة بعد الموت، إضافة إلى نفي العلامة لأي دلالة في الآيات على كون السمكة حية.

وقد أكثر المحدثون والوضاعون من الروايات المختلفة، والآراء الخرافية في هذه القصة، كما ذكر السيد الطباطبائي:

((ومنها ما في بعض الروايات: أن الحوت كان مشوياً وفي أكثرها أنه

(١) الطباطبائي، الميزان ١٣ : ٣٤١.

كان مملوحاً. ومنها ما في مرسله القمي وروايات الشيخين والنسائي
والترمذي وغيرهم أنه كانت عند الصخرة عين الحياة، حتى في رواية
مسلم وغيره أن الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء
ميت إلا حي، فلما نزلوا ومس الحوت الماء حي. الحديث. وفي غيرها
أن فتى موسى توطأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحي،
وفي غيرها أنه شرب منه ولم يكن له ذلك، فأخذه الخضر وطبقه في
سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة، وفي بعضها
أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر، وبقيّة
الروايات خالية عن ذكرها. ومنها ما في رواية الصحاح الأربعة وغيرها:
أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، فأمسك الله عن
الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق الحديث، وفي بعض هذه
الروايات أن موسى بعد ما رجع أبصر أثر الحوت، فأخذ أثر الحوت
يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب، وفي
حديث الطبري عن ابن عباس في القصة: فرجع، يعني موسى، حتى
أتى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه
موسى، يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء، ويتبع الحوت، وجعل الحوت
لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة. الحديث. وبعضها
خال عن ذلك. ومنها ما في أكثرها أن موسى لقي الخضر عند الصخرة،
وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في
جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها وجده على سطح الماء جالساً أو

متكئاً^(١))).

ولعلنا لا نتفاجئ بعد ذلك لو أن المفسرين ذهبوا بها عريضة لتفسير الآيات، حتى أننا نراهم يفقدون اتزانهم في بعض الأحيان، مع أنهم يكونون قريبين من الحقيقة أحياناً، ولكننا نعذرهم بالتأكيد على اضطرابهم كونهم يعيشون ثقافة عصرهم :

((المراد من قوله : (نسيا حوتهما)، أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصصة على الوصول إلى المطلوب، فإن قيل انقلاب السمكة المألحة حية حالة عجيبة، فلماً جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلاً على الوصول إلى المطلوب، فكيف يعقل حصول النسيان في هذا المعنى؟، أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى (عليه السلام) كثيراً فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم فجاز حصول النسيان. وعندي فيه جواب آخر وهو : أن موسى (عليه السلام) لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيهاً لموسى (عليه السلام)، على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر)).^(٢)

وخلاصة الكلام عن المعاني اللغوية أننا نرى أن اللغويين وقعوا تحت التأثير العرفي والشعبي لتفسير معنى (الحوت)، فهم يجمعون على أن

(١) الطباطبائي، الميزان ١٣ : ٣٥٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب ٢١ : ١٤٦ - ١٤٧.

معناه هو (الروغان والاضطراب)، وأما تطبيقهم هذا المعنى على السمك فهو ناتج من التفسير المشهور والمرتكز في أذهانهم بأن ما جاء في القرآن هو السمكة الصغيرة أو العظيمة، مع أننا نجدهم وبكل صراحة لا يستطيعون أن يستدلوا على مرادهم من نص أو بيت شعر جاهلي أو ظهور قرآني، بالتالي لا دليل على أن كلمة (حوت) تعني (سمكة)، الصغير منها أو الكبير.

فقد لاحظنا أنهم حينما يريدون أن يتجاوزوا إشكالية (السرب) في قوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ نراهم يلجئون إلى تفسير جزافي، فالسرب آخر المطاف وبالإجماع هو : المسلك الظاهر، وبما أن السمكة صغيرها وكبيرها لا تتخذ مسلكاً أو طريقاً ظاهراً في الماء وغيره، فإنهم لجأوا إلى القول بأن المعجز قد حضر حينها فجمد الماء حول السمكة فصار سرباً أي مسلكاً وطريقاً ظاهراً، أو أن الماء صار كالكوّة (نفق) مضت فيه السمكة.

أما المورد الآخر فهو قوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف : ١٦). والحيتان هنا بنفس المعنى السابق، وهو عبارة عن السفن التي كانوا يرسلونها للصيد أو التجارة. ولنتوقف مع أصحاب اللغة لنعرف معنى (شُرْعًا) :

((الشرع : أصله الظهور، ومنه السرعة والسرعة، وهو الظاهر المستقيم

من المذاهب، ومنه المشرعة والشرعية، لكونهما في مكان ظاهر من النهر، ومنه شراع السفينة لظهورها)).^(١)

((شراع السفينة. يقال: ثلاثة أشرعة. وجمعه: شرع. وشرعت السفينة تشريعاً: جعلت لها شراعاً، وهو شيء يكون فوق خشبة كالملاء الواسعة، تصفقه الرياح فتمضي السفينة. ورفع البعير شراعه، أي: عنقه. ونحن في هذا الأمر شرع، أي: سواء. وتقول: شرعك هذا، أي: حسبك. وأشرعني، أي: أحسبني وأكفاني، والمعنى واحد. وشرعت الشيء إذا رفعته جداً. وحيثان شرع: رافعة رؤوسها، كما قال الله عز وجل ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: رافعة رؤوسها. قال أبو ليلى: شرعاً: خافضة رؤوسها للشرب. وأنكره عرام)).^(٢)

((ومن ذلك شراع السفينة هو ممدود في علو وشبه بذلك عنق البعير فقليل شرع البعير عنقه وقد مد شراعه إذا رفع عنقه، وقيل في التفسير في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ إنها الرافعة رؤوسها)).^(٣)

((قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ وذكر أن شُرَّعاً جمع شوارع، وشوارع جمع شارع، وهو الظاهر على وجه الماء،

(١) الطبرسي، مجمع البيان ٤: ٣٨٠

(٢) الفراهيدي، العين ١: ٢٥٤.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٢: ٢٦٢ - ٢٦٣.

وروى الضحاك عن ابن عباس : شرعاً، أي ظاهرة على الماء، وقال العوفي عنه : شرعاً على كل مكان^(١).

إن اللغويين إنما فسروا الحيتان بناء على الفهم الشعبي اللاحق على زمن النص، وليس أنهم مسبقون بنص متواتر عندهم، إذ نلاحظ أنهم لا يملكون دليلاً على كون الحوت هو الحيوان كما أن (شُرْعاً) التي وردت في الآية تعني بوضوح الأشرعة، إذ نلاحظ الاتفاق على كونها الظاهرة على وجه الماء والرافعة رؤوسها، والمعنى الاجمالي هو الظهور بارتفاع.

ولكن بما أن لفظ (الحوت) أصبح مرتكزاً في أذهانهم فتعسفوا في تفسير الأشرعة هنا، فربما نتفهم تفسيرهم لعنق الناقة بالشرع، لاستقامته وطوله وبعده عن باقي البدن، أما الأسماك فمما لا سبيل إليه وفق تفسيرهم. أما تفسير الآية فهو أن القوم حينما كانوا يعدون في شريعتهم التي عبر عنها القرآن بـ(السبت)، فهم عندما كانوا يقيمون شرعتهم كانت يتيسر وصول سفنهم، وعندما يخالفون ويتركون شرعتهم تتخلف مراكبهم. وليس المعنى هنا هو يوم السبت بعينه، بل المقصود العمل بتعليم أو تركه، وشاهدنا من نفس الآية التي تدل على أن السبت لا يختص بيوم معين ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَيْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾. أي اليوم الذي لا يلتزمون فيه بما وجب عليهم.

(١) العيني، عمدة القاري ١٨ : ٢٣٦.

وجاء في بعض الروايات ما يشير إلى أن ما حصل ليونس لا يعدو أن غرق في البحر، وهو ما عرفه أهل نينوى : وعن الإمام الباقر في حديث أن يونس بعد أن نجى : ((فانطلق يونس (عليه السلام) إلى قومه فلما دنا من نينوى استحيى أن يدخل فقال لراع لقيه : إئت أهل نينوى فقل لهم : إن هذا يونس قد جاء. قال الراعي : أتكذب؟، أما تستحيي ويونس قد غرق في البحر وذهب...)).^(١)

أما معنى النون في قوله ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾، فهو الآخر لا صلة له بالحيات الحيوان، وإنما هي صفة ليونس لحدته وغضبه : ذكر ابن منظور : ((ويقال للسيف العريض العطوف طرفي الطُّبَّة : ذو النونين... والنون شفرة السيف)).^(٢)

ويدعم هذا الرأي قوله تعالى :
 ((فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ،
 لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)).^(٣) وفيها إشارة
 الى عدم الصبر وهو ما يتفق مع الحدة المشار إليها. روى عبد الرزاق
 الصنعاني في تفسيرها : ((لا تعجل كما عجل ولا تغضب كما

(١) المجلسي، بحار الأنوار ١٤ : ٣٨٣.

(٢) لسان العرب ٦ : ٢٨٤.

(٣) سورة القلم ٤٨ - ٤٩.

غضب)).^(١) وقال الرازي : ((والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبلى ببلائه)).^(٢)

وسياًتي رأي لأحد المستشرقين أن معنى (النون) جاء من (نينوى)، وهو رأي جدير بالاهتمام فقد عرفنا أن اسم نينوى أساساً هو (ننوا) و(نينا). وروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) : ((أن يونس بن متى (عليه السلام) بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً يعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمدارة لهم...^(٣) مع أن (نون) وردت بمعنى (سمكة) في الأكديّة والعبريّة والآرامية والسريانية والمندائية.^(٤) ولكن لا دليل على أنها وردت بهذا المعنى في الآية، بل الدليل قائم على أنها استخدمت في العربية بما ذكرت أعلاه، ونلاحظ أن وصف يونس في القرآن بأنه (ذو النون) كان سابقاً على حادث الغرق، ووردت هذه الصفة لمرة واحدة عند الإشارة إلى كونه غاضباً: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾. كما أن (نون) في اللغات السامية الأخرى تعني السمك الاعتيادي وليس الحيوان البحري الضخم. فهو حيوان ليس له وجود سواء البحر المتوسط أو نهر الفرات ودجلة بديهيّاً.

(١) الصنعاني، عبد الرزاق، تفسير القرآن ٣ : ٣١١.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب ٣٠ : ٩٨.

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٢٩.

(٤) خالد إسماعيل، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم ٥٥٢.

وفي محاولة غير مجدية يحاول مفسرو التوراة إيجاد مخرج لمشكلة الحوت كما جاء في دائرة المعارف الكتابية :

((كثيراً ما يقال أن بلعوم الحوت لا يتسع لمرور جسم في حجم الإنسان، كما أن الحيتان لا تعيش عادة في البحر المتوسط، ولكن الكلمة العبرية ((داج)) (dag) المترجمة ((حوتاً)) تعني سمكة كبيرة، وقد تُرجمت نفس الكلمة مراراً عديدة في العهد القديم ((سمكة)) دون تحديد لنوعها..... الأرجح أن السمكة الكبيرة التي ابتلعت يونان كانت من نوع سمك ((القرش)) التي تعيش في البحر المتوسط، كثيراً ما وُجدت جثث بشر في بطون هذا النوع من الأسماك^(١))).

ولا حاجة إلى التعليق فإن سمك القرش لا يتلع أي كائن إلا بعد تمزيقه، إضافة إلى أن النوع القادر على ابتلاع إنسان كامل هو الحوت الأزرق وهو قطعاً لا يعيش في المتوسط أو الخليج العربي.

بطن الحوت والظلمات :

تحدثنا التوراة كما في أعلاه، أن يونان أُلقي إلى البر بعد ثلاثة أيام، وهذا يمكن فهمه بإحدى صورتين :
الأول : أنه بقي غارقاً مدة ثلاثة أيام، وهذا مستبعد ومخالف لسنن وقوانين الكون.

(١) دائرة المعارف الكتابية ٨ : ٣٥٨.

الثاني : أنه بقي عائماً على وجه الماء بأي شكل كان، كأن يكون تمسك بخشبة حملها معه من السفينة أو وجدها على وجه الماء، وبعد ثلاثة أيام بلغ الشاطئ، وهذا أيضاً مستبعد لأننا لا نتحدث عن (بحر) بمفهومه الحالي، وإنما نهر كبير كـ(دجلة والفرات والنيل) أو مستنقعات (أهوار) أو بحيرات والتي يطلق عليها (بحر أو يم) أيضاً سواء في التوراة أو القرآن، ومثل هذه الأماكن لا يكون الشاطئ بعيداً كل هذه المدة (ثلاثة أيام)، إلا أن يقال أن العاصفة استمرت لثلاثة أيام فحالت دون بلوغه، إلا أن التوراة أخبرتنا كما قرأنا أعلاه، أن العاصفة هدأت مباشرة بعد أن ألقى يونس في البحر، وبهذا لا يفلح أي من التفسيرين. إلا أننا يمكن أن نفسر النص التوراتي بتفسير آخر، وهو أن (الحوت أو شءول) المقصود هو هاوية المعصية والنفس التي كان يونس في بطنها هذه المدة فأنقذه الله بعد ثلاثة أيام عندما ندم على ما فعل، وهو نفس معنى الشبول كما تقدم.

ولكننا لا نجد مثل هذه المشكلات في القرآن، فإن المدة التي استغرقها في بطن الحوت ما هي إلا لحظات، أي المدة التي يحتاجها يونس ليناجي ربه بهذه الكلمات : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء : ٨٧). وسواء كانت هذه الكلمات ناجية بها يونس لفظاً أو معنى فهي لا تستغرق سوى لحظات كما هو واضح. ولكنها لحظات واجه فيها يونس الموت والخوف فهي تعد بدهر من الزمن.

أما الظلمات التي وردت في هذه الآية فهي ظلمات البحر العاصف، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

وأما ما جاء عن بطن الحوت في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (الصافات ١٣٩ - ١٤٨).

هناك فهم أو عقيدة شعبية في العراق عن الخسوف الذي يحصل للقمر أن (الحوت بلعت القمر) فكنا نخرج عندما كنا صغاراً ونضرب على علب الصفيح أو الأواني المعدنية ونهتف للسماء: (ياحوتة يامنحوتة هدي (اتركي) گمرنا (قمرنا) العالي ...)، ومن المؤكد أن هناك جذوراً موعلة في القدم لهذه العقيدة الشعبية، وهي تؤكد لنا أن الحوت ليس هو الحيوان البحري.

من ناحية أخرى وفي هذه الآيات ما يشير إلى أن للحوت معنى آخرًا وهو قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وهو يلزم بقاء الحوت المعني إلى يوم القيامة، بالتالي لا مناص من رفض أن يكون الحوت هو الحيوان لاستحالة بقاء هذا

الحيوان إلى يوم القيامة، أما البحر فهو باق مدة بقاء الأرض، والمعنى أن يونس سيبقى جسده غارقاً في البحر إلى الأبد، لولا أنه ندم وكان (من المسيحين). أو أنه كان سيخلد في الظلمات المعنوية لولا أن ذكر ربه وتاب مما كان عليه.

وذكر لي أحد الأخوة من مصر فائدة طيبة، فقد وردت كلمة (مليم) في القرآن مرتين فقط، إحداها وصف لحال فرعون عند غرقه في البحر: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الذاريات: ٤٠). والأخرى عند التقام الحوت ليونس: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٢). فوجود هذه الكلمة في هذين الموردين (قد) يفيد اتحادهما في الحال، أي الغرق في الماء. ومن المؤكد أن هناك فوائد والتفاتات كثيرة في القرآن الكريم وكذلك في التوراة ستظهر لمن يتأمل فيهما.

ضريح يونس :

يعرف الجميع أن في نينوى الشمالية (في محافظة الموصل) ضريحاً مشهوراً للنبي يونس، وهذا يدفع باتجاه أن تكون نينوى المذكورة في سفر يونان هي الشمالية دون شك.

إلا أن هذا ليس صحيحاً فإن الضريح المشار إليه لا يحتوى رفات النبي يونس، لأن الموقع الذي شُيِّد عليه هذا الضريح هو قصر آسرحدون

ملك آشور (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) أي بعد قرن من عصر يونان حسب التوراة، فهل بني القصر على ضريح يونس؟. هذا مستبعد، كما أن الموضع يشتمل على زقورة وهيكل، أي ضمن الحي المقدس الذي لم يكن فيه مقبرة، إذ عادة ما تكون المقبرة خارج هذا الموضع، سواء كانت المقبرة الملكية أو مقبرة العامة، وهذا قياساً على تقسيم (أور) التي عثر فيها على أقدم مقبرة ملكية في العراق.

أما حقيقة موضع الضريح فهو دير مسيحي سمي باسم يونس ولم يكن قبره كما ذكر ياقوت الحموي :

((دير يونس : ينسب إلى يونس بن متى ((عليه السلام)) وهو في جانب دجلة الشرقي مقابل الموصل، وبينه وبين دجلة فرسخان وأقل، وموضعه يعرف ببنينوى، وبنينوى هي مدينة يونس ((عليه السلام)) وتحت الدير عين تعرف بعين يونس يقصدها الناس للاغتسال منها)).^(١)

ونلاحظ أن المصادر الاسلامية عموماً حصل عندها الخلط في اسم المدينة، ونظراً لوجود هذا الدير منذ ما قبل الاسلام فقد توهموا أن الدير هو ضريح، وقد عرفنا أن التل الذي شيد عليه لم يكن سوى ركام قصر آسرحدون، وأما تسمية الدير وبالتالي المسجد باسم (يونا، يونس) فمن المحتمل أن الذي شيده هو الراهب يونا، في القرن الرابع، أو في القرن الخامس، ومن ثم حصل الخلط الفاحش بسبب الاسم، وبعد زمن بُني مكان الدير مسجداً وتحول الى ضريح وهمي

(١) معجم البلدان ٢ : ٥٤٣.

ليونس، ويحتمل أن المدفون هو يونان الراهب المشار إليه أو حنانيشوع الآتي ذكره، ومثل هذه الأوهام ليست بالقليلة في الكثير من الأضرحة المنتشرة في العالم بأسره.

وقد ظهرت الأديرة في العراق في القرن الرابع عندما زاره مار أوجين :
(لقد أدخل رهبنة الأديرة إلى بلاد ما بين النهرين مار أوغين - أوجين - وهو مصري أيضاً توفي ٣٦٢ م، جاء إلى هذه البلاد ومعه سبعون راهباً أقاموا أولاً في نصيبين ثم نقلوا إلى جبل عزلة - كذا، والصحيح ايزلا - حيث عاشوا في المغاور مدة ثلاثين سنة وسرعان ما غدا عددهم ثلاثمائة. أبان حكم شابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩ م)، أعطى هذا الملك فرماناً - مرسوماً - لمار أوغين يخوله ببناء الكنائس والأديرة أينما شاء. وبعد أيام قلائل من استحواذه على هذه المأذونية الملكية. ذهب اثنان وسبعون راهباً وراهبتان، وكل يحمل صليبه، يؤسسون الأديرة وبينون الكنائس. وقد دَوَّنَ مار توما في تاريخ مرگاي - المرج - أسماءهم إلى جانب أسماء الأديرة التي أسسوها وأماكنها. وكانت المرأتان شقيقتي مار أوغين، مار تقلا ومار ستراتوتيك^(١)).

وذكر ماري بن سليمان : ((مار يونان صاحب عمر الأنبار، وهو تلميذ مار أوجين، وكان عارفاً بالطب والفلسفة وأطرح العالم وزهد ولزم

(١) حنان عبد الرحمن طه الملا، الديارات النصرانية في العراق ونشاطاتها العلمية حتى نهاية العصر العباسي ٤٨ - ٤٩. رسالة ماجستير غير منشورة. وماري بن سليمان، المجلد ١٠.

الصوم والصلاة)).^(١) وهذه الإشارة توضح لنا أن يونان الراهب شيد (ديراً) في الأنبار وهو ما أكَّده الأب حنا فبي^(٢)، فمن المحتمل أنه قام ببناء دير يونان في نينوى مع بعض رفاقه المذكورين أعلاه.

وقصة تأسيس الأديرة في العراق ليست محل اتفاق، فهناك من العلماء من يؤكد أن تأسيسها يعود لوقت مبكر من نشوء المسيحية، كما يؤكد أ.د. أكرم كسار: ((وبحدود سنة ٨٢ م ساد النظام الذي عُرف بالنظام الديري، وكُتبت دراسات غربية من قبل الفرنسيين والايطاليين عن الأديرة، ومن أهمها ما كتبه الدكتور كولتون تحت عنوان (الديرية أسبابها ونتائجها)، اعتقد فيه أن أول من وضع نظاماً للأديرة وفق حياة منظمة هو باخوسيس ٣١٥ م، وتؤكد الوثائق التاريخية أن أول نشوء للأديرة كان في المشرق وبالعراق تحديداً، خاصة أن أول دير أنشأه مار ماري سنة ٨٢ م في دير قنى القريب من منطقة النعمانية حالياً في محافظة واسط في العراق، وألحق به مدرسة للتعليم عُرفت بالاسكول، والتي استعارها الآراميون من اليونانية والتي تعني المدرسة، حسبما ذكر ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان والشابشتي في الديارات، و((مار ماري)) كان تلميذاً ل((مار أدّي)) أحد تلامذة المسيح ((عليه

(١) المجلد ٢٦. وفيه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس ٩٢.

(٢) بين النهرين ٢٥٩، العدد ١٤ - ١٥ لسنة ١٩٧٦.

السلام)))).^(١).

وهناك من العلماء من يرفض قصة مار أوجين ومجيئه للعراق وتأسيسه للأديرة في العراق ويعتبرها مجرد أسطورة كما ذكر ألبير أبونا^(٢)، لكنه يعود فيؤكد أن القرن السادس شهد انتشاراً واسعاً للأديرة في العراق وفارس^(٣)، وعلى ذلك فمن المؤكد أن دير يونس لم يكن له وجود قبل القرن الرابع حتى مع ما ذكره أكرم كسار فمع رجاحة مجيء مار ماري ((حسب التقليد)) إلى جنوب العراق وتأسيسه لأول دير إلا أن الدير لم يكن قد أخذ شكله المعروف إلا في القرن الرابع كما أكد ذلك.

ولا توجد أية إشارة إلى كون الموضع المعروف في الموصل كان في السابق ضريحاً ليونس، والقبر الموجود هناك إن لم يكن ليونان الراهب فهو لشخص آخر كما سيأتي.

ذكر الأب د. يوسف حبي: ((ما يزال شاخصاً في الموصل، في الساحل الأيسر من دجلة حيث أطلال نينوى جامع يعرف باسم النبي يونس، فوق تل يعرف بالتوبة امتداداً لرواية توبة أهالي نينوى إثر منادة يونان. والموقع قديم، لأن التل الحالي أخربة قصر آشوري، ثم دير

(١) الطريحي، محمد سعيد، ديارات الطريحي ٥.

(٢) تاريخ الكنيسة الشرقية ٢١٦.

(٣) المصدر السابق ٢٢٥ - ٢٢٦.

على اسم مار يونان، وكان عامراً حتى عام ٧٠٠. وقد وسعت الجامع جميلة بنت ناصر الحمداني وأوقفت عليه، بحيث صار الناس يقصدونه للزيارة وقضاء الليل بالعبادة، وجرت قبل سنوات محاولات تنقيب في التل أسفرت عن العثور عن ثور مجنح من قطع أحجار عدة، خلافاً للمعهود، وباءت المحاولة بالفشل، كما باءت قبلها محاولات بسبب حرمة المكان^(١).

نلاحظ أن الدير سمي على اسم (مار يونان)، ولكننا لم نعرف من يوسف حبي وغيره عن (مار يونان) هذا غير الاسم، إلا أن يكون المذكور أعلاه، والمؤكد أنه وغيره لا يعنون به (النبي يونان)، فإن كلمة ((مار : كلمة أرامية معناها السيد وتطلق على القديسين والبطاركة والأساقفة)).^(٢) ولا تطلق على الأنبياء، والإجماع منعقد على أن يونس (يونس) نبي، بالتالي يكون الدير سُمي باسم إحدى الشخصيات المقدسة عند مسيحيي العراق.

ولو تنزلنا عن كون يونان الراهب هو الذي بنى الدير وأنه سمي باسمه، فإننا في أحسن الأحوال نذهب إلى أن الدير إنما سمي باسم يونان (يونس النبي) تبركاً كما في الكثير من المواضع (كالمساجد والكنائس والأديرة وغيرها) التي تسمى بأسماء الأنبياء أو القديسين أو الأولياء،

(١) بين النهرين ٣٦، العدد ٩٧ / ١٠٠ لسنة ١٩٩٧.

(٢) رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق ٢.

ولم يرد في المصادر السريانية المتوفرة أو غيرها ما يدل على، أو يشير إلى، ضريح (قبر) ليونس في هذا المكان، إلا أننا نجد في أحد المصادر المسيحية المهمة رواية قد تدلنا على حقيقة القبر وصاحبه:

((وأقام حنانيشوع بدير يونان على جانب سور نينوى الغربي المقابل لأبواب الموصل الشرقية و[نهر] دجلة يفصل بين المدينتين المذكورتين إلى أن استباح ودفن به، وجُعل جسده في تابوت من خشب الساج ومن بعد ستماية وخمسين سنة انفتح الناووس الذي كان التابوت فيه وظهر جسده وهو منظور كأنه نائم وبادر إلى رؤيته أكثر أهل مدينة الموصل، وشاهدناه بأعيننا مع [جملة] الحاضرين، وإلى الآن كل من يقصد أن يراه ويتبارك منه فذلك له مباح ومن يشك في ذلك فليمضي بصره ويصدق [وكان نياح حنانيشوع سنة ألف وإحدى وعشر يونانية...] وفي أيامه مات عبد الملك بن مروان)).^(١)

وهذا الشخص (الجاثليق حنانيشوع) جلس على كرسي المشرق، أي كان بطريرك الكنيسة الشرقية، وتمَّ اختياره بعد ممات سلفه يوحنا بن مرتا، إلا أن حنانيشوع واجه مشاكل داخلية أدَّت إلى عزله ومضايقته من قبل عبد الملك بن مروان، فاعتزل في دير يونان حتى وفاته.^(٢) ويورد لنا ماري بن سليمان تفاصيل مهمة عن (حنانيشوع) تتلخص : أنه

(١) عمرو بن متى، المجلد ٥٩ - ٦٠.

(٢) عمرو بن متى، المجلد ٥٧ - ٦٠.

كان عالماً مشهوراً ومؤلفاً بارعاً، ونصب للرئاسة بعد يوحنا بن مرتا سنة ٦٧ هـ وكان له أعداء وحساد من النصارى فسعوا به إلى عبد الملك بن مروان، وأن تنصيبه حصل بدعم من المختار الثقفي ومصعب بن الزبير، فنجحت سعايتهم وأُقيل من منصبه، ولكن النصارى بقوا مقرين له بالرئاسة شعبياً، فساء ذلك (سرجون المتطبب) أحد خصومه فسعى به عند عبد الملك ففني إلى الصامغان في طبرستان (على الأرجح)، وعانى حتى بلغ الهلاك جوعاً وعطشاً، ولكن بعض مريديه حملوه إلى دير يونان وبقي يتوجع من آلام في ركبته حتى مات فدفن في الدير، وفي رواية أنهم دسوا سمّاً له في الطعام. وأخرى أنه مات بالطاعون. وأن مدة بقاءه في دير يونس سبع سنين وتسعة أشهر.^(١)

من الواضح أن الجاثليق حنايشوع ترك أثراً عميقاً في وجدان وتاريخ نصارى العراق، لسيرته الطيبة بينهم ومعاناته، وبقوا ملازمين لقبره قرون عديدة، حتى أنهم كما سمعنا كانوا يكشفون عن جسده بعد ستة قرون، أي أنهم اهتموا بضريحه وجعلوه مزاراً، وسيوضح لنا بعد قليل أن قبره هو الذي نسب ليونس النبي بقرينة ظاهرة كما يأتي، مع فكرة تفصيلية عن الموضع وتاريخ كشف القبر:

((في نينوى تلان كبيران، أحدهما يطل على نهر الخوصر ويسمى "تل قوينجق" كان قد شُيّد عليه الملوك الآشوريون عدة قصور في أزمنة

(١) ماري بن سليمان، المجلد ٦٣ - ٦٥.

مختلفة، واكتشف المنقبون بقايا هذه القصور..... أما التل الثاني فهو الذي تقع عليه قرية نينوى في الوقت الحاضر، وهو أصغر من "تل قوينجق" ويسمى "تل توبة" وعلى سفحه الغربي يقع "جامع النبي يونس" وقد انشئت عدة قصور ومعابد - في فترات مختلفة - على هذا التل، وكانت تشيد بعضها على أنقاض ما كان قبلها. ويظهر أن الملك "ادد نيراري الثالث ابن شمش ادد الخامس ٨٠٥ - ٧٨٢ ق. م." كان أول من شيد قصراً في موقع جامع النبي يونس. وبعد موت سنحاريب قتيلاً على يد أحد أبنائه خلفه على العرش ابنه أسرحدون "٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م." وأراد أن يبني له قصراً في موقع "جامع النبي يونس" فوجد عليه قصراً متداعياً البنيان، وقد اتخذ مخزناً للأسلحة، ومربطاً للخيل، فهدم هذا القصر، ووسع التل وبنى له قصراً فخماً، استخدم في بنائه ثلاثة وعشرين ملكاً من ملوك الحيثيين الذين قد أسرهم في حروبه. وبعد سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق. م. دمرت المدينة مع ما كان فيها من القصور والمعابد، ومما لا شك فيه أنه دمر هذا القصر مع ما كان حوله من الأبنية والمعابد فوق هذا التل. وبعد ذلك تراجع من سلم من أهل نينوى إلى مدينتهم، وعمرهم لهم مساكن ومعابد فوق "تل توبة"، وأحاطوها بسور، وصار يعرف هذا الموقع "بالحصن الشرقي"، ويذكر المؤرخون أنه كان على السفح الغربي من هذا التل معبد للأصنام وأن أهل نينوى بعد أن تابوا إلى الله كسروا أصنامهم، وهدموا معبدهم قربة إلى الله تعالى. ولما استولى الفرس على هذه البلاد، سكنها جالية منهم، فكان

لهم حي قرب الحصن الغربي، كما أنهم سكنوا الحصن الشرقي، وشيدوا لهم معابد في الأماكن التي سكنوها، ونشروا دينهم المجوسي فيها، ومن ذلك أنهم شيدوا لهم معبداً على أنقاض المعبد الآشوري، وهو الذي سماه الهروي "مشهد الرماد"، لأنهم كانوا يعبدون النار وتكون دائمة الاشتعال في المعبد، وكلمت تراكم الرماد في النار فإنهم كانوا يطرحونه خارج المعبد، في مكان قريب منه. وبعد انتشار النصرانية في هذه البلاد، أنشأ النصارى عدة أديرة فيها. منها دير ايشوعياص برقسري قرب الحصن الغربي، وكان هذا سنة ٥٧٠ م. كما أنشأوا لهم ديراً آخر على الطرف الغربي من "تل توبة" على أنقاض المعبد المجوسي، عُرف هذا الدير بـ ((دير يونان بن أمثاي))^(١).

ويؤكد الديوه جي : ((والذي نراه أن المسجد بُني على أنقاض المعبد المجوسي الذي كان في الجهة الغربية من التل، وذلك بجانب "دير يونان بن أمثاي" وكان هذا المسجد الجامع الذي صار يعرف فيما بعد - بجامع النبي يونس - وأقدم نص عثرنا عليه بوجود محل يأوي إليه الزهاد والنسك من المسلمين هو ما ذكره الأزدي في حوادث سنة ١٨٣ هـ - سنة ٧٩٩ م قال : وفيها مات حمزة بن السري الخولاني - وكان زاهداً قد احتفر في سور نينوى بيتاً يأوي إليه، والبيت في هذا الوقت - القرن الرابع الهجري - يأتيه الناس هناك. ولا نعلم هل أن هذا البيت كان في السور المجاور لتل التوبة قريباً من موقع جامع النبي يونس أم

(١) الديوه جي، سعيد، جامع النبي يونس، سومر ٢٥٠ - ٢٥١ العدد ١٠، سنة ١٩٥٤.

أنه كان بعيداً عنه، ولكنه - على كل حال - كان بيتاً يقصده المسلمون لزيارته والتبرك به. وأن الخليفة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ، ٨٩٢ - ٩٠١ م) كان قد شيد بناء على تل توبة، وبقي هذا الى القرن الرابع الهجري، وذكر البشاري المقدسي عند كلامه عن الموصل : (..... وقصر الخليفة على نصف فرسخ من الجانب الآخر عند نونوى "نينوى" القديمة. وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد ذكر مسجد على "تل توبة" يكون مأوى للزهاد والنسك.....)، وفي أواخر القرن الرابع الهجري، نجد المسجد يسمى "مسجد يونس"، يجاوره دور للمجاورين، ويزار كل ليلة جمعة. قال المقدسي : ثم بسواد الموصل "مسجد يونس" وآثاره عند نونوى (نينوى) القديمة على موقع يسمى تل توبة، وعلى رأسه مسجد ودور للمجاورين، بنته جميلة ابنة ناصر الدولة)).^(١)

نلاحظ أن الموضع توالى عليه المعابد من شتى المعتقدات في المنطقة، ولكنه إلى هذه اللحظة لم يشر إلى وجود قبر للنبي يونس فيه، حتى القرن الثامن الهجري، كما يؤكد لنا الديوه جي :

((وفي سنة ٧٦٧ هـ - سنة ١٣٦٥ م جدّد هذا المشهد جلال الدين الختني، كما يتضح من الكتابة التي حول المحراب الذي لم يزل موجوداً في مصلى الجامع المذكور. ويظهر لنا أن جلال الدين إبراهيم

(١) الديوه جي، المصدر السابق ٢٥٢ - ٢٥٣.

الختي عندما كان يقوم بتجديد المشهد عشر على قبر النبي يونس فأظهره، وبني فوقه قبة، ووضع عليه صندوقاً ومن ذلك الوقت صار يعرف المشهد : بجامع النبي يونس. نجد هذا في حجة الوقف التي كتبها جلال الدين إبراهيم الختي، بعد أن انتهى من عمارة المشهد وجعله جامعاً تقام به الجمع، ويسمى جامع النبي يونس، وأوقف له ما يكفيه، جاء فيها : (وأوقف على جامع المعمر شرقي الدجلة العظمى، الواقع في بقايا قرية نينوى، المحتوي على ضريح النبي يونس عليه السلام ... وسلم الوقف إلى المتولي السيد نصير الدين بن السيد محمد ... والناظر السيد فتح الله بن السيد محمد ...). هذا أول ظهور قبر النبي يونس في القرن الثامن الهجري، وعلى يد جلال الدين إبراهيم الختي^(١).

فلو قارنا بين ما ذكره الديوه جي، وما جاء أعلاه عن عمرو بن متى : ((وأقام حنانيشوع بدير يونان على جانب سور نينوى الغربي المقابل لأبواب الموصل الشرقية و[نهر] دجلة يفصل بين المدينتين المذكورتين إلى أن استباح ودفن به، وجعل جسده في تابوت من خشب الساج ومن بعد ستمائة وخمسين سنة انفتح الناووس الذي كان التابوت فيه وظهر جسده ...)). فإننا سنجد أن الوقت الذي كشف فيه عن قبر حنانيشوع بعد ٦٥٠ من موته، أي في القرن الرابع عشر للميلاد

(١) الديوه جي، المصدر السابق ٢٥٥ - ٢٥٦.

تحديداً، أي في نفس الوقت الذي كشف فيه الوزير الختني عن القبر الذي نسبه ليونس النبي، وذلك :

إن وفاة حنايشوع سنة ٨١ هـ لأنه تولى الرئاسة سنة ٦٧ هـ وتوفي بعد ١٤ سنة، أي حوالي سنة ٧٠٠ م، وبعد ٦٥٠ سنة كشف عن القبر كما يقول عمرو بن متى أي في حوالي سنة ١٣٥٠ م، وبطبيعة الحال لا نتوقع أن يكون تحديد عمرو دقيقاً، وإنما يمكن القول بارتياح أن كشف القبر في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، وهو التاريخ الذي كشف فيه الوزير الختني عن القبر كما مرّ بنا، وبما أن الموضع كان قد أصبح مسجداً منذ مدة بعيدة، وهناك توارد شفوي شعبي عن صلة ليونس النبي بهذا المكان، فقد وجدت قرينة عند العامة والوزير الختني أن هذا القبر له صلة بيونس النبي، وهذه القرينة لا تتعدى مدينة (نينوى)، وهي قرينة أثبتنا بطلانها، أضيف إليها الكشف عن قبر حظي بعناية وهو قبر حنايشوع، بالتالي اعتقد الوزير والعامة أن هذا القبر ليونس النبي.

ويذكر لنا الديوه جي إشارة هامة نقلاً عن دومنيكو لنزا الذي زار الموصل في القرن الثامن عشر ١٧٥٣ - ١٧٧١ م ومكث عدة سنين في دير الآباء الدومنيكيين والذي قال : ((نينوى قرية صغيرة يزورها المسلمون أفواجا، ليكرموا هناك قبراً يزعمون أنه قبر النبي يونس، بيد أنني وجدت في تاريخ النساطرة أن هذا القبر لأحد أساقفتهم الذي

يكرمونه كقديس)).^(١) والذي هو من دون شك حنايشوع المشار إليه أعلاه.

ونعلم أن ذلك الوقت كان ممتلئاً بالمذابح والقتل على يد المغول من ناحية، وكون المسيحيين عانوا الولايات من قبل الحكام في البلاد (عموماً)، فلا نتوقع منهم التدخل لبيان حقيقة الأمر، وإلا لكانوا تعرضوا لمذبحة شعبية ورسمية أخرى، فالويل لمن يمس المعتقدات الشعبية مهما كانت الوثائق والأدلة التي يمتلكها، ونلاحظ أننا حتى في هذا الزمن الذي وصلت فيه العلوم والأبحاث الآثارية إلى مستوى يستطيع فيه العلماء تحديد تاريخ المواضع وكذلك تاريخ القبور ومحتواها، إلا أنهم غير قادرين على الدنو من هذه المراقد والمواضع المقدسة في أي صقع من أصقاع العالم، إلا ما شذَّ منها.

تبقى هنا إشكالية تاريخية، وهي أننا عرفنا أن الوزير الختني هو الذي كشف عن القبر الذي نسب ليونس النبي سنة ١٣٦٥م، وذكر أن الختني كان وزيراً لتيمورلنك، مع أن ((تيمورلنك استولى على الموصل سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩١ م، ولما رحل تيمورلنك الى فلسطين ترك ابنه جلال الدين ميرانشاه على البلاد ومنها الموصل)).^(٢) وهو ما يؤكد الديوه جي في تحقيقه أعلاه :

(١) الديوه جي، المصدر السابق ٢٥٩.

(٢) سليمان صانع الموصلي، تاريخ الموصل ١ : ٢٥٣. مختصراً.

((أما ما يدعي البعض : أن أول من أظهر القبر، وبنى عليه قبة هو الأمير "تيمورلنك" وأنه أمر وزيره الختني جلال الدين إبراهيم الختني أن يعمر الجامع ويبني على الضريح قبة. فإن هذا بعيد عن الحقيقة. لأن الختني عمر الجامع وأوقف به سنة ٧٦٧ هـ - سنة ١٣٧٥ م أي قبل ظهور تيمورلنك، فقد كان ظهور تيمورلنك سنة ٧٧٣ هـ - ١٣٦٧ م وفي الجامع ضريح للنبي يونس كما مر بنا. نحن لا ننكر أن تيمورلنك استولى على الموصل مرتين : أحدهما سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٣ م واستولى عليها مرة ثانية سنة ٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م)).^(١)

وقد جاء في تحقيق لمحمد علي الحسيني بعنوان (تحقيق تاريخي في فترة غامضة من تاريخ الموصل). أثبت فيه أن جلال الدين الختني كان أميراً على الموصل قبل سنة ٦٧٢ هـ فما بعدها، مما يعني أنه متوف قبل دخول تيمورلنك البلاد بزمان ليس بالقليل،^(٢) فتبقى هنا عدة احتمالات منها: أن جلال الدين المعني بإظهار قبر يونس هو جلال الدين ميرانشاه ولد تيمورلنك الذي أصبح حاكماً للمنطقة ومنها الموصل ولكن نتيجة تشابه الاسم حصل الخلط بينه وبين جلال الدين الختني، أو أن الذي أظهر القبر هو جلال الختني ولكن في زمن سابق على الزمن المذكور أي قبل ١٣٦٥ م وهو ما يتفق مع استدلال الحسيني إذ

(١) الديوه جي، المصدر السابق ٢٥٦.

(٢) بين النهريين ٩٩ - ١٠، العدد ٩ - ١٠ سنة ١٩٧٥.

ذكر أن السيد الاسترابادي صاحب كتاب (الوافية في شرح الكافية) أهدى كتابه هذا الى الوزير الختني وولده ناصر الدين يحيى كما هو مذكور في مقدمة الكتاب، وبما أن الاسترابادي توفي سنة ٧١٥ هـ - ١٣١٥ م على أشهر الروايات، فيكون الوزير الختني متوف دون شك عند دخول تيمورلنك الموصل سنة ١٣٩١ م، وعلى ذلك يكون الختني قد أظهر القبر قبل سنة ١٣٦٥ م. ولو أننا عدنا إلى ما ذكره أعلاه عمرو بن متى بأن قبر حنانيشوع كشف عنه بعد ٦٥٠ سنة من وفاته أي سنة ١٣٥٠ م، وهو تاريخ مناسب لإظهار القبر في عهد الختني أو ولده، ولكن لا ضير في الجمع بين الروايتين بأن يكون تيمورلنك أو ولده أنشأ قبة أو جددا البناء مرة أخرى.

وبما أننا نتحدث عن أحد أنبياء بني إسرائيل فمن الإجحاف أن لا نتعرض لما ذكرته المصادر اليهودية لنرى رأيها بخصوص ضريح يونس النبي في نينوى الشمالية. ذكر يوسف غنيمه :
(أما قبر النبي يونس أو يونان ومعهد المقدس فهو قائم على أطلال نينوى فهو جامع للمسلمين ويعتبر التقليد أن فيه دُفن النبي المذكور. وليس في الأدلة التاريخية ما يؤيد هذا التقليد)).^(١)

(١) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ٢١٥.

الخلاصة :

إننا نمتلك أكثر من دليل حتى الآن على أن الضريح المنسوب للنبي يونس في نينوى الشمالية ليست له أية صلة بالنبي. وأضع بين يدي القارئ جملة من هذه التراكمات والحكايات الشعبية التي تضخمت في المصادر التاريخية والإخبارية:

روى السمعاني والبلخي : ((تل التوبة الذي تاب الله على قوم يونس (عليه السلام) فيه)).^(١)

وذكر ابن جبير في رحلته إلى الموصل : ((ومما خص به أهل هذه البلدة أن في الشرق منها إذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة، وهو التل الذي وقف فيه يونس (عليه السلام) بقومه ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب، وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة إليه، ويقال إنه أمر قومه بالتطهر فيها وإضمام التوبة، ثم صعدوا على التل داعين، وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد، وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصع كله، يقال إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس (صلى الله عليه وسلم)، ومحراب هذا البيت يقال إنه كان بيته الذي كان يتعبد فيه،

(١) السمعاني، الأنساب ٥ : ٣٦٩. وأحمد بن سهل البلخي، البدء والتاريخ ٣ : ١١٠.

وغيرهما.

ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظماً، فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه، وحول هذا الرباط قرى كثيرة ويتصل بها خراب عظيم يقال إنه كان مدينة نينوى وهي مدينة يونس (عليه السلام)، وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، وفرج الأبواب فيه بينة، وأكوام أبراجه مشرفة، بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ثم صبحنا العين المباركة وشربنا من مائها وتطهرنا فيها وصلينا في المسجد المتصل بها، والله ينفع بالنية في ذلك بمنه وكرمه، وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم الا ذا وجهه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم، فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة أيام)).^(١)

نلاحظ أن ابن جبير لم يشر إلى وجود قبر ليونس النبي في هذا الموضع، وإنما أشار إلى أن التل هو الذي وقف عليه النبي وأن نينوى هي مدينته وأن هناك عين ماء باسمه، وهذا يدل على أن الموضع لم يكن معروفاً بأنه ضريح ليونس النبي. ولكنه سرد لنا جملة مهمة من العقائد الشعبية عن الموضع.

وذكر المسعودي: ((نينوى: هي مقابلة الموصل، وبينهما دجلة، وهي بين قردى ومازندى من كور الموصل، ونينوى في وقتنا هذا - وهو سنة

(١) رحلة ابن جبير ٢١١ - ٢١٢.

اثنتين وثلاثين وثلثمائة - مدينة خراب فيها قرى ومزارع لأهلها، وإلى أهلها أرسل الله يونس بن متى، وآثار الصور فيها بينة واضحة، وأصنام من حجارة مكتوبة على وجوهها، وظاهر المدينة تل عليه مسجد، وهناك عين تعرف بعين يونس النبي (عليه السلام)، ويأوي إلى هذا المسجد النُّسك والعباد الزهاد)).^(١) وها هو المسعودي الذي يعد من أدقّ المؤرخين وأعلامهم شأنًا، فهو أول مؤرخ يتبع منهج التحليل وتتبع المواضيع بصورة عملية، لا يشير إلى وجود قبر ليونس النبي في نينوى الشمالية. ولكنه يأخذ على نحو المسلمات الموروث الشعبي وتسمياته. وذكر المقدسي : ((إقليم آقور : هذا أيضاً إقليم نفيس، ثم له فضل لأن به مشاهد الأنبياء ومنازل الأولياء، به استقرت سفينة نوح على الجودي وبه سكن أهلها، وبنوا مدينة ثمانين وبه تاب الله على قوم يونس وأخرج منه العين، ومنه دخل الظلمات ذو القرنين، وبه كانت عجائب جرجيس مع داذيانه، وفيه أنبت الله تعالى ليونس اليقطينة، ومنه خرج نهر الملة المبارك المذكور دجلة، أليس به مسجد يونس بتل توبة يقولون سبع زورات له يعدلن حجة)).^(٢)

وذكر أيضاً : ((بسواد الموصل مسجد يونس وآثاره عند نونوى القديمة موضع يسمى تل توبة، على رأسه مسجد ودور للمجاورين بنته

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ١ : ٢٣٧.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٣٦.

جميلة ابنة ناصر الدولة، وأوقفت عليه أوقافاً جلييلة، يزعمون أن سبع زورات يعدلن حجة، يُقصد ليالي الجمع، وهو الموضع الذي خرج إليه قوم يونس لما أيقنوا بالعذاب، وعلى نصف فرسخ منه عين يونس، وبظاهر بلد عين يزعمون أن يونس خرج منها يستشفى بمائها من البرص، وثُمَّ له مسجد وموضع شجرة اليقطين)).^(١)

وذكر ابن خلكان : ((وكانت ولادة فخر الدولة المذكور في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بالموصل، وتوفي بها في شهر رجب، وقيل في المحرم، سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، ودفن في تل توبة، وهو تل في قبالة الموصل يفصل بينهما عرض الشط)).^(٢)

ولو كان في هذا التل قبر ليونس لكان قد أشار إليه ابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ ونعرف أن ابن خلكان قد ولد في أربل بالقرب من الموصل، فمن غير المحتمل أن يخفى عليه شهرة الموضع في زمنه، ولكن الواضح أن كل ما كان يعرف به الموضع أنه تل توبة، الذي يعرف شعبياً أنه التل الذي وقف عليه قوم يونس عندما تابوا، ولكننا عرفنا أن هذا التل لم يكن له وجود في زمن يونس المفترض (القرن الثامن قبل الميلاد)، وإنما وجد هذا

(١) أحسن التقاسيم ١٤٦.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥ : ١٣١.

التل بتراكم الأتربة والأطيان على قصر لأسرحدون الذي مات في منتصف القرن السابع، وبعد أن خربت نينوى وهجرت أصبح الموضع تلاً كما هو شأن المواضع الأثرية التي يتراكم عليها التراب والطيني الذي تأتي به الأنهر القريبة منه لفيضاناتها.

أما في جغرافيتنا ومصادر التاريخ التي هي أقدم زمناً مما مضى فنجد أن مسجد يونس الذي هو قبره على الأرجح في الكوفة. أنظر: (لويس ماسينيون، خطط الكوفة. وهشام جعيط، الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية. والبراقى، تاريخ الكوفة. وغيرهما).

وقد ورد ذكر هذا المسجد أيضاً مع اسم مسجد الحمراء.^(١)

ويوجد في الكوفة على الضفة اليمنى من نهر الفرات مشهد ليونس بن متى، وتسمية موضع القبر بالمسجد متعارفة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (الكهف: ٢١).

وممن ذكر هذا الموضع محمد بن جعفر المشهدي (المتوفي في القرن

(١) التقفي، الغارات ٢: ٤٨٤. والطوسي، الأمالي ١٦٨.

السادس للهجرة) في كتابه (المزار)^(١)، والذي استل منه الطريحي كتاب: (فضل الكوفة ومساجدها)، وذكر أن الإمام علي بن الحسين زاره بهذا الموضع. كما ذكر محقق الكتاب محمد سعيد الطريحي فوائد هامة في الهامش:

((هو مشهد النبي يونس بن متى (عليه السلام) وهذا من المشاهد المقدسة في الكوفة حيث ورد في كثير من الكتب أن النبي يونس (عليه السلام) قد دفن في هذا الموضع، وورد هذا في حديث للإمام علي (عليه السلام) عن مسجد الحمراء الذي هو بجانب المشهد. وهذا المشهد الجليل مع الأسف لم يقدره الناس - مع الأسف - تقديره الذي يستحقه بسبب خمول ذكر المصادر الموثوقة التي تشير إليه، ولهذا فقد قمنا بدراسته ضمن بحث كبير عن النبي يونس ذو النون (عليه السلام) وظهر لنا خلال التحري انه من المشاهد القديمة وذكره ورد منذ الإمام علي (عليه السلام)، ومن قدامي الرحالة الذين زاروه السائح الهروي، قال (وهو بالنخيلة)، وابن المستوفي (قال وهو بالطريق الشرقي من الكوفة). كما أسس عند هذا المشهد سنة ٤٧٩ هـ مدرسة دينية على المذهب الحنفي أسسها أحد القادة الأتراك وأجرى لأساتذتها وطلابها جرايات من المال، وذكر المشهد القرمانى وغيره. وهناك الكثير من الأضرحة التي تنسب للنبي يونس أشهرها الذي يقع فوق تل توبة في

(١) المشهدي، المزار ١٥٥.

نينوى، وقد جدد هذا الضريح في فترات متباعدة، ووسعه واتخذهُ جامعاً جلال الدين الختني، وفيه محاريب جميلة من الرخام، كما أن قبة الحضرة من أجمل القباب المزينة بزخارف جبسية، ويقصده أهل الموصل للصلاة ولزيارة قبر النبي يونس (عليه السلام). وفي قرية حلحول في فلسطين قبر ليونس، وفي بلدة "كفر كنا" مقام ليونس (عليه السلام) وهي في فلسطين أيضاً، وفي بلط قرب نصيين، فوق الموصل، قيل سميت بلط لان الحوت ابتلعت يونس هناك، وبين بيروت وصيداء (خان بني يونس) يعتقد المسيحيون أن فيه نجا يونس من الموت الخ. (التفاصيل في كتابنا: يونس ذو النون). وموقع المشهد الحالي بالكوفة على شاطئ الفرات وبجانبه مسجد الحمراء - القديم - وللمسجد منارة جميلة العمارة حديثة البناء، وعمارة المشهد والمسجد تشكو الإهمال والخراب منذ فترة^(١)).

وذكر ابن كثير في أحداث سنة ٤٧٩ للهجرة: ((الأمير جنفل قتلغ أمير الحاج، كان مقطوعاً للكوفة وله وقعات مع العرب أعربت عن شجاعته، وأرعبت قلوبهم وشتتهم في البلاد شذر مذر، وقد كان حسن السيرة محافظاً على الصلوات، كثير التلاوة، وله آثار حسنة بطريق مكة، في إصلاح المصانع والأماكن التي تحتاج إليها الحاج وغيرهم، وله مدرسة على الحنفية بمشهد يونس

(١) المشهدي، فضل الكوفة ومساجدها ٦٨ - ٦٩.

بالكوفة)).^(١)

وذكر المقدسي : ((وبالكوفة قبر نبي أظنه يونس "عليه السلام"))).^(٢)
وهناك من يرى أن المشهد في الكوفة ليس قبره وإنما الموضع الذي
خرج فيه من النهر بعد نجاته من الغرق : وذكر حرز الدين : ((قال
الحجة السيد مهدي القزويني : إن قبر يونس المعروف في نينوى من
الموصل، الأصح فيه أنه عن الغري بستة عشر فرسخاً، وأما الذي في
الكوفة مما يقرب من المسجد الأعظم هو المقام الذي ألقته فيه الحوت
من الفرات)).^(٣)

وحتى مع افتراض القزويني فهذا يؤدي إلى أن يونس أساساً كان قد
سافر في السفينة في نهر الفرات، مما يجعل نينوى المفترضة هي
كربلاء، إذ أن الموضع يتناسب مع الحدث. أما الموضع الذي يعتقد
القزويني أن فيه قبر يونس والذي يبعد (١٦ فرسخاً) قرابة ٩٠ كم عن
الغري (النجف) فلم يحدده لنا، وفي أي اتجاه هو، ولكن الظاهر أن
يشير إلى شمال النجف، فهو كان مستوطناً للحلة في بابل، فلربما يوجد
في بعض نواحي بابل مشهد ليونس النبي. وأرجح أن السيد القزويني
قد اختلط عليه الأمر لوجود أكثر من ضريح في هذا الاتجاه مثل

(١) البداية والنهاية ١٢ : ١٦١.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٣٠.

(٣) مرآة المعارف ٣٧٨.

ضريح النبي ناحوم وعدد كبير من البيع وقبور علماء ورابين يهود في شثاة (عين تمر)^(١) التي تقع الى الشمال من الغري وعلى نفس المسافة المذكورة تقريباً. كما أنها من المراكز الدينية التي تجد فيها آثار كنائس وأديرة ومقابر لا تحصى.

ونلاحظ أن المصادر الإسلامية مع جهلها عموماً بموضع نينوى المقصودة في الحدث، إلا أنها ذكرت ما يدل على أن موضع الحدث في الجنوب العراقي، كما تؤكد ما ذكرناه من اتجاه ترشيش وأن الرحلة كانت تسير باتجاه الخليج العربي :

((ودخل في سفينة من سفن دجلة، فوقفت السفينة ولم تتحرك، فقال رئيسها: فيكم من له ذنب؟ فتساهموا على من يلقونه في البحر، ووقعت المساهمة على يونس، فرموه في البحر، فالتقمه الحوت وسار به إلى الأبله)).^(٢) والأبله أحد أقدم المواضع في البصرة، وفيها مواضع أثرية. كما أنها تقع على نهر الفرات.

وروى القرطبي: ((فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مرَّ به إلى الأبله، ثم انطلق به حتى مرَّ به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في

(١) رحلة بنيامين التطيلي ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر ١ : ٣٢. ومجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل ١ : ١٥٦. والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٣ : ١٢٥. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١ : ٣٦٣.

نينوى)).^(١)

وذكر ابن قدامة أن السفينة التي ركبها يونس كانت في نهر دجلة.^(٢)

عباس الزبيدي / النجف الاشرف

١٠ ذو القعدة ١٤٣٧ هـ - الموافق ١٤ / ٨ / ٢٠١٦ م

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ١٢٢.

(٢) ابن قدامة، كتاب التوابين ٢٧.

المصادر

- القرآن الكريم
- ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد ابن إدريس الرازي (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ)، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمد الطيّب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر. سنة الطبع ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
- ابن الأثير، مجد الدين، المبارك بن محمد بن محمد الشيباني (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ١٣٦٤ ش، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم - إيران.
- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى الأندلسي (٥٣٩ -

٦١٤ هـ. ١١٤٤ - ١٢١٧ م)، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة

والنشر - دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن

محمد الجوزي القرشي البغدادي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ)، زاد

المسير في علم التفسير، حققه وكتب هوامشه : محمد بن عبد

الرحمن عبد الله، خرَّج أحاديثه : أبو هاجر السعيد بن بليون

زغلول. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفكر، بيروت -

لبنان، الطبعة الأولى جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ - كانون الثاني

١٩٨٧ م.

- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، فتح

الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر،

بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.

- ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد، مسند أحمد، دار صادر،

بيروت. عن البابي الحلبي، القاهرة ١٣١٣ هـ

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن

إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الهكاري الأربلي الشافعي

الأشعري، (المتوفى سنة ٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء

الزمان. تحقيق : إحسان عباس، دار الثقافة - لبنان. د.ت.

- ابن عربي، عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله

محيي الدين بن عربي الحاتمي، تفسير ابن عربي، ضبطه

- وصححه وقدم له : الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- ابن عطية الأندلسي، القاضي أبو محمد عبد الحق. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، المطبعة: لبنان - دار الكتب العلمية.
- الأفريقي، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧
- ابن قدامة، الامام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ)، كتاب التوايين، حقق نصوصه وعلق عليه : عبد القادر الأرناؤوط. الناشر : مكتبة الشرق الجديد - بغداد.
- ابن كثير، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ). حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في تاريخ البشر. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان. د.ت.
- أبونا، ألبير، تاريخ الكنيسة الشرقية، بغداد، الطبعة الثانية ١٩٨٥.

- إسماعيل علي، د. خالد، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، بغداد ٢٠٠٤.
- الأصفهاني، الراغب، مفردات غريب القرآن، الطبعة : الثانية، سنة الطبع : ١٤٠٤ هـ، الناشر : دفتر نشر الكتاب - قم.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون. مركز النشر : مكتب الاعلام الإسلامي، تاريخ النشر : جمادي الآخرة ١٤٠٤ هـ طهران - قم.
- باقر، د. طه : من تراثنا اللغوي القديم، بغداد، بيت الوراق، الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. مطبعة الحوادث، بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٣.
- ملحمة كلكامش، شركة دار الوراق للنشر - لندن، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (الوفاة ٥١٠ هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك، الناشر : دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- البلخي، أحمد بن سهل، البدء والتاريخ، الطبعة الأولى ١٩٠٣، باريس.
- بين النهرين، مجلة فصلية حضارية تراثية، تصدر عن مطرانية الكلدان - الموصل: العدد ٩ - ١٠ سنة ١٩٧٥. والعدد ١٤ - ١٥

سنة ١٩٧٦. والعدد ٩٧ / ١٠٠، سنة ١٩٩٧.

- التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله، تفسير التستري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ

- التطيلي، بنيامين بن يونة النباري الأندلسي (المتوفي سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م)، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، شركة الوراق للنشر، بغداد - شارع المتنبي، الطبعة الأولى - ٢٠١١.

- التميمي، الامام الحافظ أحمد بن علي بن المشي (٢١٠ - ٣٠٧ هـ)، مسند أبي يعلى الموصلي، حققه وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت، د.ت.

- الثعلبي، يحيى بن محمد بن أبي العلوي الواعظ البغدادي (الوفاة ٤٢٧ هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

- الثقفى، أبو إسحاق إبراهيم محمد الثقفي الكوفي (ت ٢٨٣)، الغارات، تحقيق: السيد جلال الدين المحدث، سلسله انتشارات انجمن آثار ملی ١١٥ چاپ دوم.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين، بيروت -

- لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- حرز الدين، محمد، مراقد المعارف، علق عليه وحققه : محمد حسين حرز الدين، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
- حضارة العراق، تأليف نخبة من الباحثين، الجزء الأول، دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد ١٩٨٥.
- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- حنون، د. نائل، شريعة حمورابي، ترجمة النص المسماري مع الشروحات اللغوية والتاريخية ج ٢. دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- الخليلي، جعفر، موسوعة العتبات المقدسة. الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- دائرة المعارف الكتابية، مجلس التحرير : دكتور القس صموئيل حبيب، دكتور القس فايز فارس، القس منيس عبد النور، جوزيف صابر. المحرر : وليد وهبة بياوي. دار الثقافة - القاهرة، الطبعة الثانية ، مطبعة سيورس.
- ديليتش، فريدريك، بابل والكتاب المقدس، ترجمة : ايرينا داود، الطبعة الأولى ١٩٨٧، العربي للطباعة والنشر - دمشق.
- الرازي، فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب الجزء الخامس، المطبعة البهية المصرية - القاهرة، الطبعة الأولى

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

- الرازي، أبو علي أحمد بن محمد مسكويه (المتوفي سنة ٤٢١ هـ)، تجارب الأمم، حققه وقدم له الدكتور أبو القاسم امامي، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، دار سروش للطباعة والنشر، طهران.

- رشيد، د. فوزي، الشرائع العراقية القديمة، بغداد، دار الرشيد للنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٩.

- رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، مطبعة المنصور، بغداد ١٩٤٨.

- الزبيدي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق: علي شيري. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٩٩٤ م - ١٤١٤ هـ.

- الزهري، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت (د.ت).

- السمعاني، الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت سنة ٥٦٢ هـ)، الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي. دار الجنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- الصليبي، كمال، خفايا التوراة، دار الساقى - بيروت، الطبعة السابعة ٢٠٠٦.

- الصنعاني، الإمام عبد الرزاق بن همام (١٢٦ - ٢١١ هـ)، تفسير

القرآن، تحقيق: الدكتور مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية - الرياض.

- الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، الطبعة الأولى، عن طبعة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٣ م.

- الطبراني، الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ هـ - ٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي. دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م - ١٤٠٤ هـ

- الطبرسي، أمين الاسلام أبو علي الفضل بن الحسن (توفي سنة ٥٤٨ هـ)، حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، قدم له الإمام الأكبر السيد محسن الأمين العاملي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

ملاحظة: قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة لندن في سنة ١٨٧٩ م.

- جامع البيان في تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخراج: صدقي حميد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -

بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

- الطريحي، فخر الدين (توفي سنة ١٠٨٥ هـ) تفسير غريب القرآن، تحقيق وتعليق: محمد كاظم الطريحي، الناشر: انتشارات زاهدي - قم.

- الطوسي، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ): الأمالي، الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة نشر: دار الثقافة - قم.

- العبسي، الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (المتوفى سنة ٢٣٥ هـ)، مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام، الاشراف الفني والمراجعة والتصحيح: مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر، الطبعة الأولى جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - كانون الثاني ١٩٨٩ م، دار الفكر، بيروت - لبنان.

- عمرو بن متى، أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، طبع في رومية الكبرى سنة ١٨٩٦ م.

- العياشي، أبو النصر محمد بن مسعود السلمي السمرقندي (توفي سنة ٣٢٠ هـ). تفسير العياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الثانية - ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

- غنيمة، يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق،

- المكتبة العربية - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي - الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٩ هـ، الناشر: مؤسسة دار الهجرة - إيران - قم.
- الفغالي، الخوري بولس، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، المكتبة البولسية - جمعية الكتاب المقدس، الطبعة الثانية ٢٠٠٩، بيروت.
- الفغالي، الخوري بولس، وعوكر، الأب أنطون، العهد القديم، ترجمة بين السطور، الجامعة الأنطونية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، لبنان.
- فيه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس. دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى. ١٩٩٠.
- قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، القاهرة - جمعية الكتاب المقدس - لبنان. مطبعة الحرية بيروت، الطبعة الرابعة عشر ٢٠٠٥.
- القاموس المندائي، الشيخ خلف عبد ربه لفته، المهندس قائد كامل عودة، دار انهر للطباعة والنشر، الطبعة الاولى سنة ٢٠٠٥م، بغداد.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: محمد محمد حسنين، سنة الطبع:

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت
- لبنان.

- ماري بن سليمان، أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب
المجلد، طبع في رومية الكبرى سنة ١٨٩٩ م.

- مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧)، الأنس الجليل بتاريخ القدس
والجليل. تحقيق: تقديم وتعريف: محمد بحر العلوم، سنة
الطبع: ١٣٨٨ - ١٩٦٨ م، الناشر: منشورات المطبعة الحيدرية
في النجف الأشرف.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت سنة
٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دققها ووضعها وضبطها
الأستاذ يوسف اسعد داغر، الطبعة الثانية في ايران - قم دار
الهجرة ١٤٠٤ هـ ١٣٦٣ ش ١٩٨٤ م.

- المشهدي، محمد بن جعفر الحائري (ت ق ٦): فضل الكوفة
ومساجدها، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، دار المرتضى،
بيروت - الغيري.

- المزار، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، الطبعة: الأولى، سنة
الطبع: رمضان المبارك ١٤١٩ هـ المطبعة: مؤسسة النشر
الإسلامي، الناشر: نشر القيوم - قم - ايران.

- المصطفوي، الشيخ حسن، التحقيق في كلمات القرآن. الطبعة:
الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧ هـ الناشر: مؤسسة الطباعة والنشر

- وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران.
- مقاتل بن سليمان (الوفا سنة ٢٥٠ هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤ - ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية ١٩٠٩، ليدن - مطبعة بريل. طبعة أوفست: دار صادر، بيروت.
- الملا، حنان عبد الرحمن طه، الديارات النصرانية في العراق ونشاطاتها العلمية حتى نهاية العصر العباسي ٤٨ . ٤٩. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة تكريت. ٢٠٠٥.
- الموسوي، تحسين آل شبيب، مرقد الإمام الحسين (عليه السلام) عبر التاريخ، الناشر: دار الفقه للطباعة والنشر، الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ المطبعة: شريعت - قم.
- الموصلي، القس سليمان صائغ، تاريخ الموصل ج ١، المطبعة السلفية بمصر، ١٩٢٣ م - ١٣٤٢ هـ
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي المتوفي سنة ٣٣٨ هـ معاني القرآن الكريم، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، المملكة العربية السعودية جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- النميري، أبو زيد عمر بن شبة (ت ٢٦٢)، تاريخ المدينة. تحقيق :
فهم محمد شلتوت، سنة الطبع : ١٤١٠ - ١٣٦٨ ش، المطبعة :
القدس - قم، الناشر : دار الفكر - قم - إيران.
- الهيثمي، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة
٨٠٧ هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحري الحافظين الجليلين :
العراقي وابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ -
١٩٨٨ م.
- يوسف، د.ق. صموئيل، المدخل إلى العهد القديم. دار الثقافة .
القاهرة، الطبعة الثانية - ٢٠٠٥.

•

المحتويات

٦ المقدمة الأولى
١٠ المقدمة الثانية
١٢ المقدمة الثالثة
٢٤ ترشيح
٢٨ نينوى
٤٠ الاحتكام إلى النهر
٤٩ الحوت
٨١ بطن الحوت والظلمات
٨٤ ضريح يونس
١١١ المصادر
١٢٥ المحتويات

عنوان البريد الالكتروني للمؤلف :

البريد الالكتروني : aram_1430@yahoo.com

النبي يونس (يُونَان) والحيوت

قراءة جديدة للنص والجغرافيا التاريخية للحدث

أما كلمة الحوت التي وردت في القرآن فلم ترد بمعنى (الحوت: الحيوان الثديي البحري) في كل الموارد، وإنما وردت بعدة معاني ليس منها سمكة أو غيرها من الحيوانات البحرية.

ذكر ابن فارس: (حوت) الحاء والواو والتاء أصل صحيح منقاس، وهو من الاضطراب والروغان، فالحوت العظيم من السمك وهو مضطرب أبدا غير مستقر. والعرب تقول حاوتني فلان إذا راوغني. وينشد هذا البيت :

ظَلَّتْ تحاوتني رمداء داهية
يوم الثوية عن أهلي وعن مالي

المؤلف

مؤسسة البديل للدراسات والنشر
التحيف الأشرف

صُمِّمَتِ اللوحة ببرنامج 3D تم نشرها في موقع wallpaperfly.com

فكرة وتصميم الغلاف: محمد جواد شير